$ ٨/—

١

خِداعُ الْمرايا

الدكتور

عيد بلبع

رقــم الإيــداع

٣٢٧٠ / ٢٠٠٢

الترقيم الدولى .I.S.B.N

977 - 5723 - 65 - 5

ايتـــراك للنشـــر والتـــوزيع

طريق غرب مطار ألماظة عمارة (١٢) شقة (٢) ص.ب : ٥٦٦٢

هليوبوليس غرب – مصر الجديدة

القاهرة ت : ٤١٧٢٧٤٩ فاكس : ٤١٧٢٧٤٩

إهداء

إلى كل عقلٍ عربى يهدف إلى التخلى عن التفكير فى المكان .

إلى كل عقلٍ عربى يهدف إلى التفكير للأمام .

إلى عقلِ كل عربى يهدف إلى الدخول فى منظومة العقل العربى ،

وإلى الدخول بالعقل العربى فى منظومة معرفية .

أهدى هذه الصفحات

تقــديــم

لست أدافع فى أن الدافع المباشر من كتابة هذه الصفحات هو كتـاب : " **المرايا المقعرة** " للدكتور **عبد العزيز حمودة** ، الذى صدر فى سلسلة عــالم المعرفة الكويتية ٢٠٠١ م ، وما أفرزه هذا الكتاب من ردود أفعال غريبــة ، فلقد تلقفته الأيادى بلهفة المشتاق إلى الوقوف على أرض صلبــة ، فالغــائب المنتظر قد هبط علينا إذ دفعت به سلسلة علم المعرفة التــى لا تُبــارى فــى اتساع الانتشار ، فقطاع كبير من الدارسين والباحثين فى شوق لا يُنكر إلــى معرفة نظرية عربية فى اللغة والنقد .

وربما كانت العقول مدفوعة بدوافع شتى إلى هذه المعرفــة ، فمــن الممكن أن يكون الدافع هو الإمساك بدليل مادى على مدى تفوق العقل العربى على العقل الغربى وسبقِه إلى إنتاج نظرية فى المعرفة اللغويــة والنقديــة ، وربما كانت العقول مدفوعة بتلقى جديد فى المعرفة لم يهتدوا إليه ، وربما لـم يهتدِ إليه غيرهم ، على أى حال تلقت الأيادى الكتاب بغير شك فى أنه ينطوى على جديد فى الكشف عن مكنون العقل العربى .

ولقد كنت شاهداً على إحباطات كثيرة أصابت بعض المثقفين إذ لــم يجدوا فى الكتاب ضالتهم المنشودة ، فبعد أن أنجزوه قراءة تولــوا ولســان حالهم ينطق بأن هذه بضاعتنا رُدت إلينا .

ولست أنكر أن هموماً ثقيلة قد عصفت بى وأنا أقرأ صفحـــات هــذا الكتاب ، كان مبعثها أنه لم يقل جديداً فى النظرية العربية ، بل إن ما قاله فى النظرية العربية كنت تلقيته وأنا أتلقى التعليم الجامعى فى السبعينيات ، بل إن نظرية النظم ــ تحديداً ــ تلقيت دروسها على يد أستاذى الدكتــور / محمــد زكى العشماوى ، وكنت فى الفرقة الأولى بكلية الآداب بجامعة الاسـكندرية ، وأذكر جيداً كيف كان أستــاذى د. العشماوى يُشـــربُنا فكــر عبــد القــاهر الجرجانى ، فأدركنا النظرية وفهمناها واستوعبناها وتمثلناها ، فانحفرت فـــى رؤوسنا ووجداننا حتى صرت أتقمص الشكل والهيئة والحركات الجسدية التى كان يقوم بها أستاذنا عندما أتعرض للحديث عن النظريـــة لتلاميــذى بكليـــة الآداب بجامعة المنوفية .

وإننى إذ أتقدم بهذه الصفحات للمثقف العربى أرجو أن أكون قد وفقت فى طرح القضية ، كما أرجو ألا يقتصر تلقى هذه الصفحـــات بوصفـــها رداً كتاب ، فما لهذا الدافع اليسير طرقت القضية ، وما فى هذا الهدف الضيق أود أن ينصرف ذهن القارئ العربى .

وإننى ــ فى الوقت نفسه ــ لأرحب بكل كلمة تقويم ونقد ، بل نقـض لهذه الأفكار المطروحة ، فلست أبرئ هذه الصفحات من بعض القصور .

ونسأل الله العون والمغفرة .

د/ عيد بلبع

كلية الآداب ــ جامعة المنوفية

كفر الدوار ــ يناير ٢٠٠٢ م

تمهيد

ألف ـ بـاء

ما العقل ؟

وماذا نعنى بقولنا : **العقل العربى ؟**

ربما كان من الأوفق أن نبدأ الحديث هنا بداية أكثر سذاجة ، ولنبتعد قاصدين عن محاولة التعريفات المنطقية ، فلعل البساطة التى تصل إلى حد السذاجة أقرب إلى الصواب لما تنطوى عليه براءة التفكير الطفولى المتلمس للحقائق بإثارة الأسئلة العميقة التى ربما وقف الكبار أمامها فاغرى الأفواه تعجباً ودهشة ، إننا نريد أن ننعم بهذه الحرية الواسعة التى ينعم بها الطفل فى إدراك الأشياء .

إن العقل إحدى إمكانيات البشر التى تتفاوت من إنسان لآخر ، وعمله التفكير ، فالإنسان قادر على التفكير الذى يدرك به الأشياء ، ويدرك به العلاقات بين الأشياء ، العلاقات الواقعة بالفعل ، والعلاقات التى يمكن أن تكون ، وفى المسافة بين الإدراكين يكون التفاوت الشديد بين بعض البشر وبعضهم الآخر ، فإدراك العلاقات القائمة بين الأشياء — بلا شك — نشاط عقلى ولكنه نشاط قاصر على إدراك معرفة قائمة ومستقرة فى الوجود ، وناتج هذا النشاط يتمثل فى تفسير الظواهر وتحليل المواقف ، وقد يصل النشاط العقلى إلى حدٍ كبير من التوقع والاستشراف ، وهنا يدخل العقل فى المرحلة التالية من النشاط المتمثلة فى إدراك العلاقات التى يمكن أن تكون ، وفيها ينتقل العقل من إدراك المعرفة الكائنة إلى إدراك المعرفة الممكنة ، أى يتحول من استهلاك المعرفة إلى إنتاج المعرفة .

وينبغى أن ننتبه إلى أن نشاط إنتاج المعرفة هذا لا يكون من فـواغ ، أى لا يكون بقدرة ذاتية خالصة للعقل ، وإنما يكـــون بقـدرة العقـل علـــى الاستقبال والإدراك لنشاط عقلى آخر ، وقدرة على تمثل هذا النشاط بوصـف التمثل " نشاطا عقليا يتجه إلى إدماج موضوع معين ، أو موقف معين ، فـــى مخطط نفسى أشمل " (١) ، ومن ثم تصبح المعرفة التى ترفـد العقـل بـــها نشاطات عقول أخرى مكونا من مكونات هذا العقل ، بمعنى أنـــها لا تزيـده معرفة فحسب بل تزيده قدرة على الاستنتاج والاستنباط والتوقع .

إنها قدرة أكبر على إدراك ما لم يكن يستطيع إدراكه من قبل ، وقدرة مضاعفة على تمثل ما لم يكن يستطيع تمثله من قبل ، ثم قدرة علـــى خلــق التصورات التى لم تكن ، والتصورات الممكنة ، ومن هنا يدخل العقـل فـــى القدرة على إنتاج المعرفة .

ودعنا نسميها : القدرة على التفاعل الذى يحقق التواصل المعرفـــى ، وإنما يكون هذا ممكنا بطرح تصورات جديدة ، ولا يمكن أن يكون بحال مـن الأحوال محصورا فى السلوك التكرارى المنحصر فى " القدرة على قول مـــا قيل من قبل " ، فإن هذا النشاط الأخير نشاط مخادع مـــهما اشـتمل علـــى محاولات التوفيق والوقوف موقف الوسطية ، فما الوسطية سوى نمـــط مـــن أنماط التكيف التى تدخل فى سلوك المواءمة وهـــو " نشـــاط نفســـى للطفـــل

---

(١) جابر عصفور : قراءة التراث النقدى ط١ ، دار سعاد الصباح ١٩٩٢ ، ص ٧٣ ، وأصله بحث ألقى فى ندوة النادى الأدبى الثقافى بجدة ١٩٨٨ م بعنوان " مقدمات منهجية "

يتلخص في تحويل مخطط أولى بهدف التكيف مع موقف جديد " [٢] ، ولكن الطفل هنا مستسلم لضغوط مواضعات اجتماعية شتى لا يقوى على دفعها ، أما إذا تجاوز نشاطُ المواءمة الطفلَ إلى من يُناط بهم التفكير فلا شك فى أنها ستكون مجهضة لنشاط العقل البشرى ، أو على الأقل عاملاً من أخطر عوامل إعاقته ، فالتكيُّف فى هذا المقام يعنى حمل الذات ــ بفكرها الحاضر وتراثها القديم ــ على التوافق والتواؤم مع الآخر يستوى فى ذلك أن يكون حداثياً أو غير حداثى .

وثم نشاط استهلاكى آخر لا يقل خطراً فى منحاه الاستهلاكى العقيم عن التكيُّف ، وإن كان أكثر إيجابية من التكيُّف ، ويمكننا أن نطلق على هذا النشاط : " **التكييف** " ، ويعنى حمل المنتج الفكرى للآخر على التوافق والتواؤم مع الذات ، وبذلك يتفق مع التكيُّف فى الانطلاق من التواؤم الاستهلاكى ، وقد لا يختلف عنه فى شىء سوى ما يهيمن عليه من العنصرية ، وهى هنا غير مجدية .

أما التمثُّل الذى أشرنا إليه آنفاً فهو انصهار الآخر فى الأنا بوصفه رافداً من روافده ، يرفده و لا يُلغيه ، ولا يُلغى فيه ، إذ تحتفظ الذات بملامحها الخاصة ، ولا يكون ذلك بدافع قصدى للمحافظة على الهوية ، ولكنه يكون بتمكُّن الهوية تمكُّناً حقيقياً من العقل يجعله قادراً على صهر الآخر فيها ، إن التمثُّل الذى نعنيه قدرة أشبه بقدرة الجسم على امتصاص العناصر من الطعام ، إن هذه القدرة تمكِّن الجسم من الانتفاع بهذه العناصر ولكنْ بشروط الجسم ، فالمواد والعناصر الداخلة فى بناء جسم إنسان التى

---

[٢] المرجع السابق ص ١٢٦ ، نقلاً عن د. مصطفى سويف

يستخلصها من النبات تدخل فى بناء جديد على صورة مختلفة عن التى كانت موجودة بها فى النبات ، وكذا العقل ، يمتص المعارف الرافدة له من الـتراث أو من الآخر ، من القديم أو من الحداثة ، ثم تدخل فى بنية جديدة لها ملامـح هذا العقل وبصماته وخصوصيته ، وإن شئت قلت هويته ، وبذلك يتأكد لنا أن التمثل مرحلة فوق الإدراك والفهم والاستيعاب .

إنه القدرة على التفاعل الخلاق المنتج للمعرفة لتحمل فى طيها قـدرة على نقد التصورات السابقة ونقضها فى آن واحد ، إذ إن العقل الذى يتمكـن من هذه القدرة لا يرضى بحال من الأحـوال أن يكون عقلاً استهلاكياً يقـف عند حدود استهلاك المعرفة الآتية إليه من جذوره التراثية أو الآتية إليه مـن الآخر ، وينبغى أن نعترف فى صدق وصراحة بأن محاولات اتخاذ موقـف الوسطية والتوفيق ــ مهما كانت منطلقاتها ، ومهما كانت غاياتها ــ إنما هـى محاولات استهلاكية فى جوهرها و صميمها .

يصدق هذا الذى قدمنا على عقل الفرد ، فماذا نعنـى إذن بقولنـا : **العقل العربى ؟**

قد يكون الأمر أبسط وأيسر منالاً إذا استحضرنا مفـهوم الإذاعـات المبثوثة عبر الأثير ، فإن الإذاعة معبرة عن فكر أمة وسياستها ومواقفـها ، وهى لسانٌ واحدٌ ناطق بلسان مجموع ، وكذا العقل ، عندما يتجـاوز همـوم الفرد إلى هموم المجموع ، ومواقف الفرد إلى مواقف المجمـوع ، وغايـات الفرد إلى غايات المجموع ، فعقل المجموعة إذن هو مجموعة مـن العقـول تدخل فى منظومة واحدة ، تحدها هوية وطنية أو قومية أو دينية أو عرقيـة ، ويُظلها التفاعل والتواصل نقداً ونقضاً وتطويراً وبناءً .

لعل إحدى صور الإعاقة المتعلقة بالقطيعة المعرفية تتمثل في القصور في فهم ما يمكن أن تعنيه مقولة " العقل العربى " ، والحق أن كتاب " المرايا المقعرة " لم يكن بمعزل عن هذا القصور في الفهم ، فبينما راح الصيحات النظرية المتعاقبة عن " العقل العربى " تتردد فى هذا الكتاب فقد جاءت الممارسة العملية التطبيقية فى الكتاب لتؤكد العزلة والذاتية ، وبينما راح ــ نظريا ــ يردد الصيحات المتعاقبة حول ضرورة التواصل المعرفي مع التراث فقد أخذ عمليا فى تمزيق التواصل المعرفى مع المعاصرين ، وإذا كنا ننشد لهذا العقل موقفا معرفيا خلاقا مستقلا فينبغى أن نتعمق بالحوار ونتجاوز السطح الذى وقف عنده كتاب " المرايا المقعرة " ، ولا مناص من أن تكون البداية من " **ألف باء** " .

إن " ألف باء " مكاشفة العقل العربى تتمثل فى الوقوف على حقيقة مؤداها أننا عندما نردد مقولة " العقل العربى " فإننا بالقطع لا نعنى عقلا واحدا ، ولكننا نعنى مجموعة من العقول تتفاعل فى نظام أو نسق واحد ، أو حتى مجموعة من المنظومات والأنساق التى يربط بينها وحدة الهوية ، ولا يمكن أن يحدث تواصل فى النشاط العقلى إلا إذا تم التواصل بين هذه العقول ، تواصلا تنتفى معه الذاتية الخانقة ، لتعمل هذه العقول عمل الفريق الواحد الذى تتجانس بنياته وتتضام عناصره ، بحيث يستقر فى عقول المجموع أن الإخلال بهذه البنية العقلية هو نوع من القطيعة المعرفية ، يستوى فى ذلك أن تكون هذه القطيعة بين أبناء الجيل الواحد أو بين الأجيال المتعاقبة .

*****

وفى وقفة المواجهة والمكاشفة هذه ينبغى أن نعــترف فــى صــدق وصراحة بأن **العقل العربى ليس عقلاً قاصراً ولكنه عقل مُعاق ، وأن أسباب إعاقته هى فى الوقت نفسه مظاهر هذه الإعاقة ، ولا تتم الإعاقــة الواقعــة على هذا العقل بفعل خارج عنه ، بل تتم بفعلٍ خارجٍ منه ، ومن وهَنٍ فـــى العزائم المحركة له .**

أود أن أنبه إلى ضرورة استبعاد الربط الشائع بين مفهوم الإعاقـــة و العجز ، فإن القصور عجز لا يمكن تجاوزه ، ولكن الإعاقة ليســت عجــزاً ولكنها حدث يمكن تجنبه ، والإعاقة ليست عيباً فى قدرة العقل ولكنها عيــب فى فعل العقل المتعلق بتحصيل المعرفة والإفادة منها أو إنتاجها .

ولا ضير من أن يقف هذا العقل مع نفسه الوقفة بعد الوقفــة لإعــادة ترتيب أوراقه ، وإمعان النظر بعد النظر فى أدواتــه وإجراءاتــه ، و لكــن العجيب حقاً أن يأتى فعل الإعاقة هذا من صوت يجـــهر بالانتمــاء ويرفــع الصرخات من أجل إنقاذ العقل العربى ، أما صاحب الصوت فـــهو د. عبــد العزيز حمودة ، وأما الكتاب فهو " المرايا المقعرة " ، وإذا لم يكن ثم عقـــل عربى إلا ضرَب فى هذه المظاهر بسهم ، حتى غدت هذه المظاهر مصاحبــة للنشاط العقلى العربى بشكل واسع ، ولكن اتخاذى من كتاب " المرايا المقعــرة " نموذجاً ليس راجعاً إلى أن الكتاب هو أكثر الكتب انطواء علـــى مظــاهر الخلل المشار إليها ، ولكن أيضاً ــ وهو الأهم ــ أن الكتاب ينطـــوى علــى تناقضات بين الدعوة والممارسة ، فلعل هذا الكتاب هو الذى جمع بين شــتات أسباب الإعاقة وصورها أدق تصوير ، وليس ذلك بمعالجته لهذه الظواهــر ،

ولكن بتحقق هذه الظواهر بسلبياتها المختلفة فى معالجـــة الكتــاب نفســها ، وتتمثل أهم هذه المظاهر ــ فيما أرى ــ فى الآتى :

ــ القطيعة المعرفية

ــ التركيز على السلبيات

ــ خلل المنطلقات

*****

وإذا كنت فى معالجة هذه المظاهر اتخذت من كتاب المرايا المقعـــرة نموذجاً فإننى لا أتهم مؤلف الكتاب بالخداع والمخادعة ، ولكننى ــ فقـــط ــ أنبه إلى مخادعة الفكرة فى ذاتها ، بل لعلى لا أبالغ إذا زعمـــت أن مؤلـــف الكتاب نفسه ربما وقع فى شرك خداع الفكرة ، وأرجو أن يحسُن بى الظـــن فإننى أعنى ما أقـــول ، على الرغم من المآخذ الكثيرة التـــى أخذتـــها علـــى المؤلف ، فكلنا قابل لأن يخطئ ويصيب ، ولكن إلى أى حد يُعذر الأعلام فى الوقوع فى أخطاء تتعلق بـــ (**ألف باء**) النهج المعرفى ؟

إننى فقط أبرئ نفسى من اتهامه بسوء النية ، ولكن فيما يتعلق بالخطأ فلا أحسبنى ألتمس عذراً فيه ، قد تكون الفكرة فى ذاتها خادعة بما تنطـــوى عليه من تداخلات مع أبعاد عاطفية ونفسية متعددة ، ولكن لِمَ يعرض أحدنـــا نفسه من البلاء لما يطيق ؟

ومهما تعمدنا من وصم دعاة القطيعة بسوء النية فإن نتيجة حتمية من نتائج جهودهم لا نستطيع إنكارها خلاصتها : أن هذه الجهود هى التى فتحـت

العقل العربى على الثقافة الغربية ، وهى التى أسست ــ بلا شك ــ لاستثارة عقلية نرى القديم من خلالها وفى ضوئها وعلى هدى منها ، أرادوا ذلك أو لم يريدوه ، واعترفوا به أو لم يعترفوا ، واعترفنا به أو لم نعترف ؛ فما إنكار هذه الحقيقة سوى ضرب من التركيز المنحاز على سلبيات النشاط العقلى ، لتنحسر دونها إيجابياته التى لا تُنكر ، لنحيا حالة غريبة من الخداع العقلى .

إن العقل العربى ــ فى مأزقه الحالى ــ ليس بحاجة إلى أن يخرج عليه كل يوم من يحاول أن يستهلكه فى محاورة خادعة ، ولكنه بحاجة إلى طاقة فاعلة فى منحى التطور والتحديث ، أو سمّه ما شئت ؛ لأن جهود الفاعلين فى تطوير فكرة أجدى على هذا العقل من منحى الوصاية التى يفرض بها أحد الباحثين نفسه كائناً من كان ، وهو بحاجة ــ قبل هذا وذاك ــ إلى الوعى بطريقه وتحديد أهدافه .

فعلى الرغم من أن " نظرية النظم " التى توهم صاحب المرايا أنه استنبطها استنباطاً ليست وليدة استنباطه فى العقل العربى الحديث ، فإن هذه النظرية ــ على أهميتها ــ لا تعد مناط الإبداع فى فكر عبد القاهر الجرجانى ، ومن ثم الفكر العربى اللغوى والبلاغى القديم ؛ لأنها تأتى من قبيل المعرفة (الجاهزة) التى لا تعدو ــ وليس هذا إقلال من شأنها ــ أن تكون إحدى وسائل التخدير التى تؤدى إلى خمول العقل العربى ، والأجدى من أن نتعلم من القدماء فكرة محددة أن نتعلم منهم طريقة فى التفكير ، أى طريقة فى إنتاج الفكرة ؛ لأن النتيجة المأساوية لشرعية النظرية القديمة التراثية ، أو النظرية الحداثية الغربية ، هى أننا ــ فى الحالين ــ مستهلكون لمعرفة ، غير قادرين على إنتاجها .

ربما كانت كلمات عبد القاهر الجرجانى التى تؤسس لطريقـــة فـــى المعرفة أجدى ، وأجدر بالانتباه من نظريته (الجاهزة) التى أنتجـــها فـــى المعرفة ، وليس عبثاً أن يستهل د. جابر عصفور بحثه عن قـــراءة الـــتراث النقدى : " مقدمات منهجية " بقول الجرجانى :

" واعلم أنك لا تشفى الغلة ولا تنتهى إلى ثلج اليقين حتى تتجـــاوز حد العلم بالشىء مجملاً إلى العلم بع مفصلاً ، وحتى لا يقنعك إلا النظر فـــى زواياه ، والتغلغل فى مكامنه ، وحتى تكون كمن تتبع الماء حتـــى عـــرف منبعه ، وانتهى فى البحث عن جوهر العود الذى يصنع فيه إلى أن يعـــرف منبته ، ومجرى عروق الشجر الذى هو منه " (٣)

إن هذه العبارة تلفتنا إلى طريقة فى المعرفة : كيف نفكـــر ؟ كيـــف نعرف ؟ كيف نبحث ؟ كيف ننتج الفكرة ؟

إنها طريقة فى إنتاج النظريات المعرفية كان من شـــأنها أن تخـــرج بالعقل العربى من مأزق التلقى السلبى لنظريات معرفية من تراث الأجـداد أو من حداثة الآخر .

ولكنْ على الرغم من أن التفات عبد القاهر إلى أفكار تتعلق بمنهجيـــة المعرفة أجدى من إنتاجه لمعرفة بعينها ، فإننا لم نلتفت إلى هذه الأهمية فـــى تعلُّم منهج التفكير ، وآثرنا السلامة فركنًا إلى الأفكار المعدة نحفظها ونكررها ونشرحها ونلخصها ونلتمس لها الشواهد من هنا وهناك ، وبهرتنا الفكرة التى

---

(٣) عبد القاهر الجرجانى : دلائل الإعجاز ، تـــ محمود محمد شاكر ، ط ٢ ، الخانجى ، القاهرة ١٩٨٩ ، ص ٢٦٠

صادفت فينا رغبة استهلاكية قاصرة ، لا تختلف فى كثير أو قليل عن الهوس الاستهلاكى لمُنتَج الحضارة الغربية الحديثة من قِبَل المستهلك العربى ، ذلــك المستهلك الذى يؤثر أن يحصل على المُنتَج جاهزاً من أن يبذل الوقت والجهد فى تحقيق الوعى بالطريقة

لقد هالنى يوماً أن سمعت أحد مذيعى مباريات كرة القدم يعلق علــى العربة الصغيرة التى تقوم بنقل اللاعب المصاب خارج الملعب إذ قــال إننــا شاهدنا هذه العربة فى مباريات دولية فطلبنا من المسئول استيرادها فســرعان ما وافق ، على حين أن هذه العربة يستطيع أى عامل فــى إحــدى الــورش المتنــاثرة فى زوايا المدن والقرى أن يقوم بصنعها ، ولعلــى لا أبــالغ إذا زعمت أننى – بخبرتى التى قد لا تتجاوز درجة الصفر – أستطيع أن أقــوم بصنعها ، إنه المنحى الاستهلاكى الذى ننجرف فيه ونحن مغيبون فى أكــبر الأشياء وأصغرها .

إننا – فى الواقع – نحتاج إلى تعلم طريقة نعرف بها ما لا نعـرف ، أكثر من حاجتنا إلى معرفة **(جاهزة)** ، ومــا تلقــف نظريــة (جــاهزة) والارتكان إليها سوى نوع من الخمول العقلى ، وما أراد عبد القاهر ولا غيره من أسلافنا لنا هذا الموقف المهين .

ومن أثرى ملاحظات د. شوقى ضيف (١٩٦٥ م) فــى إيجابيــات التراث البلاغى تتمثل فى المعنى الإضافى ؛ وتكمن أهمية هذه الملاحظة فــى جمعها بين العمق التاريخى والرؤية المعاصرة " فلم يأت حديــث د. شــوقى ضيف عن المعنى الإضافى عند عبد القاهر الجرجانى مجرد إشارة عــابرة ، ولكنه التفت إلى أن هذا المعنى الإضافى يمثل جوهر البعد البلاغى للقــول ،

وقد أطلق عبد القاهر عليه " معنى المعنى " ، وقام بتحليل مفهومه فى حديثه المسهب عن نظرية النظم ، ففصاحة الكلام ينبغى أن تُرد إلى جمال المعانى الإضافية ... وينبغى أن يرد إلى هذه المعانى جمال الاستعارة والكناية ، ثم يستعرض د. شوقى ضيف المباحث البلاغية عند عبد القاهر فى ضوء ما تحققه من المعانى الإضافية ، وبذلك يُجلِّى فكرةَ جوهريةِ المعنى الإضافى فى تحقيق البعد البلاغى للقول .

وبذلك يحمل حديثه هذا دعوة إلى استثمار هذه الفكرة فى الدرس البلاغى الحديث بوصفها منطلقاً لتحليل الظواهر البلاغية المختلفة ، ويُسهم فى إثراء التحليل النقدى ، ويتلاقى مع الرؤى الحديثة فى الأسلوبية والشعرية ، والحقيقة التى يجب أن نعترف بها فى وضوح هى أن د. شوقى ضيف بالتفاتته هذه وضع البلاغيين العرب المحدثين فى حرج شديد ؛ لأن أحدهم لم يأخذ نفسه باستثمار مقولة المعنى الإضافى حتى أتتنا من الآخر فيما أنتجه من معرفة حديثة عن علم الأسلوب والشعرية ونظرية إنتاج العلامة ، على الرغم من أن اتخاذ المعنى الإضافى منطلقاً لاستكناه الظاهرة البلاغية ينتج مفهوماً للبلاغة يجعلها تتلاقى مع مفهوم الأسلوبية " (٤) .

---

(٤) د. عيد بلبع : شوقى ضيف والدرس البلاغى ، بحث ألقى فى مؤتمر تكريم د. شوقى ضيف بالمجلس الأعلى للثقافة فى أبريل ٢٠٠٠ ص ٣٠

أردت بهذا أن أدلل على أن نظرية النظم فى الفكر البلاغى واللغوى العربى التى تبلورت على يد عبد القاهر ليست مناط الإبداع فى هذا الفكر ، وقد اهتدى إلى هذا الملمح غير واحد من البلاغيين المحدثين منذ زمن بعيد ، ومنهم د. شوقى ضيف ١٩٦٥ ، فإن قراءة كتابه " البلاغة تطور وتاريخ " تُثبت أن النظريـــة ليست نظرية عبد القاهر الجرجانى ، ولكن ـــ فقط ـــ تبلورت على يديه ، كما تُثبت أن هذه النظرية ليست من اكتشاف صاحب المرايا ، كما تُبت ـــ فى الوقت نفسه ـــ أن فى التراث البلاغى نظريات غيرها جديرة بالتأمل والمساءلة ، قابلة للتطور والتحديث .

القطيعة المعرفية

(١)

لا نقصد بالقطيعة المعرفية هنا الوقوف عند حدود ما ذهب إليـــه د. عبد العزيز حمودة فى كتابه : " المرايا المقعرة ، ولكننـــا نقصـــد القطيعـــة المعرفية بمستوياتها الزمنية المختلفة ، أى القطيعة التى تضمنتها دعوة بعض الحداثيين مع التراث ، والقطيعة بين الأجيال المتعاقبة ، أو بين أبناء الجيـــل الواحد ، وبذلك نخرج من خصوصية الحدث المثار ـــ الرد على د. حمودة ـــ إلى عمومية القضية ، فليس الرد على الكتاب المذكور هو شغلنا الشاغل فـــى هذه الصفحات ـــ كما ذكرنا ـــ ولكنه مجرد مثير ، ولذلك فإننا نود الخـــروج من هذه الدائرة الضيقة المنحصرة فى دعوة بعض المعاصرين للقطيعة مـــع التراث ، فلأمر أو لآخر حدد د. حمودة القطيعة فى هذا الحيز الضيق ، الذى يترتب عليه ضيق الهدف المرجو من إثارة القضيـــة ، والحـــق أن المشـــكلة والهدف معاً أكبر من هذا التحديد .

فما أود التأكيد عليه هنا هو أن هذه القطيعة ليست سوى وجـــه مـــن أوجه القطيعة ، ومن ثم فإننا نطمح إلى نظرة أكثر اتساعاً للقطيعة المعرفية ، بوصفها أحد مظاهر إعاقة العقل العربى ، وبوصفها سبباً من أخطر أســـبابه التى تتحقق فيها الذاتية بأنانيتها وغرورها ، تتنافى مع الرؤية الجمعية التـــى تتفاعل فيها العقول وكأنها وحدات عضوية فى بنية عقلية واحدة . والحـــق أن صاحب المرايا قد أخذها على الحداثيين وراح يمارسها مـــع المعـــاصرين ،

ودافعنا إلى عدم الاقتصار على وجه واحد من أوجه القطيعة المعرفية يرجع إلى أن الدعوة إلى القطيعة المعرفية مع التراث ليست بأخطر من ممارسة القطيعة المعرفية مع المعاصرين ، فكلاهما قطيعة ، وكلاهما يمثل عزلة للعقل العربى ، وكلاهما يضع هذا العقل فى خطر عظيم .

(٢)

قلنا إن موقف القطيعة الذى يرفضه د. حمودة نظرياً قد أخذ هو نفسه فى تأكيد وجوده ، وقد حملت بعض عباراته شهادة على تأكيد هذه الحقيقة ، يقول فى مستهل الكتاب : " موقفى المبدئى أن العقل العربى استطاع ــ فى وقت كان عقل أوربا أثناءه يغط فى سبات الجهالة ــ أن يقدم فكراً لغوياً ونقدياً كان من الممكن ــ لو لم تحدث فترة الانقطاع الطويلة من القرن الرابع عشر الميلادى حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ولو لم نقم نحن ، فى انبهارنا بإنجازات العقل الغربى فى العصر الحديث ، باتخاذ موقف القطيعة الاختيارية والإرادية من تراثنا القديم ــ هذا الفكر كان يمكن أن يتطور إلى مدارس لغوية ونقدية كاملة النضج " (١)

والحقيقة أن البكاء لا يكون على فترة الانقطاع الطويلة من القرن الرابع عشر الميلادى حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ولكن

(١) د. عبد العزيز حمودة : المرايا المقعرة ، ط.عالم المعرفة ، الكويت ٢٠٠١ ، ص ١٢

الجدير بالبكاء هو الفترة من النصف الثانى من القرن التاسع عشر حتى يومنا هذا ؛ لأن هذه الفترة شهدت وعياً بحاضرنا كان الأجدر به ألا ينزوى فى أزقة الفردية الضيقة ، وألا يتقلص فى قوقعة الذاتية ، بل كان الأجدر به أن ينطلق فى منظومة معرفية تتغذى بنياتها ببعضها البعض ، لتفرخ فى دفء المجموع معرفة هادية للأجيال ، فينبغى أن نعى أن عدم الحرص على أن يخرج هذا الوعى الجمعى إلى حيز الوجود يمثل قطيعة بين المتعاصرين ربما جاءت أشد خطراً من القطيعة مع التراث .

فمن المغالطات التى انطوت عليها العبارة السابقة أنه يجعل الحكم عاماً شاملاً بالانبهار بإنجازات العقل الغربى فى العصر الحديث ، كما يجعله عاماً شاملاً باتخاذ موقف القطيعة الاختيارية والإرادية من تراثنا القديم ، فإذا كانت الدعوة إلى القطيعة ــ كما يزعم د. حمودة ــ تمت على يد بعض الحداثيين فمن هم الحداثيون العرب فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين ؟

ومن يقول بأن الدعوة إلى القطيعة المعرفية مع التراث ــ بزعم د. حمودة ــ بدأت من النصف الثانى من القرن التاسع عشر ؟

ولنتأمل : إلى أى حد بلغ التأثير السلبى لدعاة القطيعة المعرفية على العقل العربى الحديث ؟ وإلى أى حد بلغ التأثير السلبى لدعاة التمسك بإنجاز العقل العربى القديم ؟

لعل عاقلاً لا يجادل فى أن الأثر السلبى لدعاة القطيعة مع التراث والتمسك بإنجازات العقل الغربى حقيقة واقعة ، كما أن الأثر السلبى لدعاة التمسك التقديسى بإنجازات العقل العربى حقيقة واقعة أيضاً ، ولعل عاقلاً لا

يجادل فى أن الأثر السلبى على العقل العربى للدعوة الثانية جاء أعمق ، ومن ثم أشد فى إعاقته وأفعل فيها ، ولِنتبين حقيقة ذلك ننظر نظرة إحصائية إلـــى المنجز الفعلى مما حبَّرته المطابع من أوراق فى الدعوتين .

لا شك أن الانفعال والغضب ساقا إلى خلط الأوراق فى موضوع مـن أخطر موضوعات حياتنا ، وربما فى منعطف تاريخى من أشـــد منعطفــات حياتنا حرجاً .

ولست مع هذه الدعوة أو تلك فكلتاهما تمثل شكلاً من أشكال القطيعــة والإعاقة ، ولكننى فقط أنبه إلى أن الأخطر مـــن هــذا وذلك هــو قطيعــة المتعاصرين التى جعلت الجهود المعرفية تتسم بالفردية والذاتية ، فلا تتواصل فيما بينها ، وإذا ظهر نبوغ فى النشاط العقلى العربى فإنما يظهر طفرة ربمــا لا تقبل التكرار ، ولعل فيما ذهب إليه د. حمودة فى عبارته السابقة اعترافـــاً صريحاً بأن العقل العربى قام بنشاط فكرى فى النصف الثــانى مـــن القـــرن التاسع عشر حتى الآن ، تقترن به إشارة ضمنية إلى أنْ د. حمودة نفسه لـــم يُعر هذا النشاط الاهتمام الذى يُجلى فاعليته ؛ ليكون كتابه انطلاقاً إلى خطـوة تالية ، فأين التفاعل المعرفى مع هذا النشاط فى كتاب المرايا المقعرة ؟

لعل الدعوة الأكثر حضوراً فى كتاب الدكتور عبد العزيز حمودة هــى الدعوة إلى التواصل المعرفى مع الذات (التراث) ، تلك الدعوة التى تتضمن وجهاً آخر يأخذ بعداً تحذيرياً من القطيعة المعرفية ، وقد انشـــغل د.حمـــودة وشغلنا برفض الدعوة للقطيعة المعرفية التى أسرف فى التدليل على وجودهــا عند بعض الحداثيين العرب ــ على حد تعبيره ــ وإذا هو يمارس القطيعة فى ذاتية خانقة تجاهل معها الجهود المبذولة من الباحثين فى الدراســات النقديــة

والبلاغية ، يقول مكرراً تعميم الأحكام التى لا تتسم بالدقة والموضوعية : " فى انبهارنا بإنجازات العقل الغربى الحديث ، أدرنا ظهورنا بالكلية ، أو بدرجات متفاوتة ، لتراث البلاغة العربية ، وكنا حينما نعود إلى تلك البلاغة ، فى أفضل الحالات ، نفعل ذلك من منطلق الدراسة الأكاديمية التى تنتهى فوق أرفف المكتبات " (٢)

وما دام قد رأى جهود سابقيه ومعاصريه بهذه الدرجة من الضآلة فلا عجب أن يرى جهده ولا يرى شيئاً آخر معه ، فرأى أنه البادئ لهذه الدعوة إذ يقول : " ويكفينى شرف إثارة الرغبة ، رغبة الآخرين ، فى إعادة قراءة تراثنا العربى فى النقد والبلاغة ولو بقليل من الإنصاف وكثير من عدم الانبهار بمنجزات العقل الغربى " (٣)

ولست أنكر أن هذه السمة لم ينفرد بها كتاب المرايا المقعرة ، ولكنها هى السمة الغالبة على العقل العربى كما هو واضح من المؤلفات العربية ، وتتحدد هذه السمة فى فردية الجهود المعرفية وذاتيتها ، ولافرق بين أن يكون الدافع وراء ذلك هو النزعة الفردية الذاتية التى ينزع الباحث فيها إلى إثبات وجوده ، فيضرب الذكر صفحاً عن معاصريه وسابقيه من المحدثين ، أو يكون بغرض الدعة والراحة من عناء البحث والاستقصاء والقصور فى التواصل ، والخطورة الحقيقية أن مؤلف المرايا جعل من عدم معرفته مبرراً للبداية من جديد ، على حين أنه فى الحقيقة قصور فى التواصل المعرفى ،

---

(٢) المرجع السابق ص ١٣

(٣) المرجع السابق ص ٢٤٧

فإقامة علم أو إنضاجه والتأسيس لنظرية متكاملة أمر يحتاج إلى تأمل وتدبر وطول معايشة لأصول هذا العلم ، واستقراء كامل لجهود السابقين في هذا المجال ، ولاشك في أن ذلك يحمل الكلف به العناء الكثير ، أما صاحب المرايا فقد أغفل جهودا جادة ليأخذ بأيدينا إلى التأخر في منطقة طرح السؤال الذي نعد بحق قد تجاوزناه ، ولكنه — ربما — لا يعرف ، فبينما يقبع د. حمودة في منطقة تحديد الهدف بإثارة التساؤلات التي تحاول إقناع الباحثين والدارسين بجدوى الهدف ، نجد أن الهدف قد تحدد عند أناس مخلصين لهويتهم قد تجاوزوا منطقة التحديد والاقتناع إلى الممارسة الفعلية التي أنتجت بالفعل دراسات وكتبا .

(٣)

تمخض الجهد الذي بذله صاحب المرايا في استنباط نظرية لغوية عربية عن نظرية النظم المعروفة تماما لدى طلاب المرحلة الجامعية ، والتي تم عرضها بتحليلات كثيرة على يد أعلام لا يعذر بجهلهم باحث ، فقديما جدا عرض د. شوقي ضيف (١٩٦٥ م) لنظرية النظم في كتابه : " البلاغة تطور وتاريخ " ، " فأرجعها إلى أصولها الأولى عند المعتزلة ، وناقش آراء الجبائي والقاضي عبد الجبار في الفصاحة لافتا إلى أن مفهوم الفصاحة الذي حدده القاضي عبد الجبار يلتقي مع مفهوم عبد القاهر للنظم ، ومشيرا إلى

شيـــوع مصطلح النظم في بيئة الأشاعرة ، فقد ذكره الباقلاني من قبـــل ، بيد أن تبلور النظرية بصورتهـــا الجليـــة التي عرفت بها لم يتم إلا على يد عبـد القاهر الجرجاني " (٤) .

ولكننا ــ مع ذلك ــ لا نرى من أثر لمناقشات د. شوقي ضيف فـــي كتاب المرايا المقعرة ، على الرغم من أن د. شوقي ضيف ١٩٦٥م قد نفـــذ إلى أفكار حول نظرية النظم أعمق بمراحل من الأفكار التي ذكرها د. حمودة ٢٠٠١ م ، وعلى الرغم من أن مناقشة د. شوقي ضيف خالصة في هويتها لا تشوبها شائبة من شوائب الإشارة إلى الآخر ، أي قطيعة تلك التـــي يزعـم صاحب المرايا أنه يتصدى لها ؟ " **والطريف أن مؤلف المرايا المقعرة تلقـى تعليما غربيا !** " (٥) .

إن مظهرا من مظاهر استخفاف المؤلف بفكره يكمن وراء هذه الشكل من أشكال القطيعة المعرفية الجديدة ، فإن جزءا من احترام أي مؤلف لفكـــره يتمثل في أن يضع هذا المؤلف فكره في موضعه الذي أراد ــ ما دام يصـــدر عن إرادة ــ بين فكر السابقين والمعاصرين ، ليكون في هذا بيان للاحقيـــن ، وبهذا تتحقق للفكر عضويته الفاعلة في البنية المعرفية للنسق الذي ينتمي إليـه المؤلف ، وما يخالف هذا السلوك يصدر عن أحد أمرين : فإمـــا أن يكـــون صادرا عن استهانة المؤلف بالعناصر العضوية الأخـــرى المعـــاصرة لـــه ، الرافدة لهذا النسق المعرفي ، فيراها منعكسة في مرايا مقعرة ، ويراها مـــن

---

(٤) شوقي ضيف والدرس البلاغي ، بحث لمؤلف هذه الصفحات ، ألقي في الندوة التي أقامها المجلس الأعلى للثقافة لتكريم د. شوقي ضيف ١٩٩٩ م ص ٢٨

(٥) د. عبد العزيز حمودة : المرايا المقعرة ٢١٦

التضاؤل بحيث لا تستحق أن يدخل معها فى بنية واحدة ، فيصدر عـــن ذات متضخمة ترى نفسها فى انعكاسات مرايا محدبة ، ومن ثم يسلمه الأمر إلـــى قطيعة خانقة ، وإما أن يكون صادرا عن عدم معرفة بهذه الجـــهود ، ولكـــن النتيجة واحدة فى الحالين .

إن العقول القادرة على الدخول فى منظومة معرفية لا تنظـــر إلـــى المعرفة نظرة اجتزائية هدفها التحصيل الكمى ، ولكن العقل العربى الحديـــث كان فى أكثر ممارساته بمعزل عن هذا السلوك المنهجى ، إننا قادرون علـــى أن نعرف ما تم إنتاجه بفعل عقل آخر ، وقادرون على أن ننقل هذه المعرفـــة إلى غيرنا ، ولكن إلى أى حد نقدر على الدخول فى منظومة فكرية تتجـــاوز الفردية والذاتية وتفكر للأمام ؟ ومن الطريف أن يفعل هذا من تلقـــى تعليمـــا غربيا .

إن السمة الغالبة فى المؤلفات الغربية أن يذكر المؤلف الآراء الســـابقة عليه مع التركيز على تاريخ الآراء التى يعرضها لغيره ، وهو بذلك يصادف هدفين منهجيين على درجة كبيرة من الأهمية والخطورة فى بنية المنظومـــة الثقافية والمعرفية ، بل فى بنية الحضارات ، فهو يحـــدد لنفســـه ــ أولا ــ موضع الفكرة الشاغرة التى ينفذ منها لطرح فكرتـــه لتســـاهم فـــى بنيـــة المنظومة المعرفية التى رفدت فكره واستقى منها معرفته ، لينعطـــف عليـــها منتجا لفكرة جديدة ــ مهما كانت يسيرة محددة ــ تدخل فى بنية المنظومـــة ، ليتم التواصل والاستمرار ، وهو ــ ثانيا ــ فى تحديده لزمن إنتاج الأفكـــار السابقة عليه يحدد ملامح الأفكار مؤرخة للنشاط العقلـــى عنـــد أصحابـــها بتحولاته ومغايراته ، وربما بتناقضاته أحيانا ، ليصبح هذا التحديد الزمنـــى

تحديدا لحركة المنظومة المعرفية بشكل عام ، وبذلك تتحدد فى بساطة ويسـر تطورات الرؤى ، وموضع المؤلف بين هذه التطورات .

هذا البعد المنهجى غائب ـــ أو يكاد ـــ عن المعرفة العربية حتى فـى الأبحاث الجامعية التى تنال بها أرفع الدرجات العلمية ، بل ربما غابت فـى بعض أبحاث الترقى ، وكأن عامل الزمن ورصد حركة العقل خلاله ليست من الأهمية عندنا فى شىء ، ولا شك أن هذا المظهر مـن أخطـر أشـكال القطيعة المعرفية التى لم يعرها صاحب المرايا أى اهتمام علـى المستويين النظرى والتطبيقى فقد جاء كتاب المرايا المقعرة ـــ مـن هـذه الوجهـة ـــ مهلهلا ، " **والطريف أن مؤلف المرايا المقعرة تلقـى تعليمـا غربيـا !** " ، وسنقف عند بعض نماذج إنجاز العقل العربى الحديث فى هذا المجال .

(٤)

إن صاحب المرايا يؤسس لقطيعة معرفية أشد عنفا فى وقعها علـى العقل العربى من تلك التى يزعمها ، فلقد سبقه ـــ بعدة عقود من عمر الزمـن ترجع إلى بدايات الربع الثانى من هذا القرن ـــ عدد كبير مـن المخلصيـن لتراثهم ، وقد ساروا بخطى متفاوتة ، وما يزالون ، نحو استثمار النظريـات البلاغية القديمة وهم شاخصون إلى إفراز العقل الغربـى فـى هـذا الحقـل المعرفى ، وما غاب عنهم أنهم بصدد الحوار مع مقولات أسلافهم فى علـم قال عنه هؤلاء الأسلاف أنه لم ينضج ولم يحترق ، والحـق أن صـاحب " المرايا " قصر فى التواصل مع هذه الجهود ، ويسـتوى هنـا سـوء النيـة

وحسنهـــا ، فهذه المؤلفات ليست من الضآلة بحيث تغفل ، بل هى من النيوع والانتشار والثراء بحيث لا يعذر بتركها ، وبحيث تكون الإدانــــة بالقطيعـــة المعرفية و تجذير الإعاقة فى العقل العربى أقل اتهام يوجه إلى هذا السلوك .

لقد أغفل صاحب المرايا ــ على سبيل المثال لا الحصـــر ــ جـــهود أمين الخولى المبكرة فى نقد النظرية البلاغية العربية ومحاولاته فـــى تقديـــم تصور بديل فى كتابيه " مناهج تجديد ١٩٢٩ " و " فن القول " ١٩٤٧م ، وقد ناقش د. سعد مصلوح آراء أمين الخولى وأحمد الشايب فى كتابه : الأســلوب ١٩٣٩ ، فى بحثه " مشكلة العلاقة بين البلاغة العربية واللسانيات الأسلوبية " فى الندوة التى أقيمت فى نادى جدة الأدبى الثقافى ١٩٨٨ م ، وقـــد طبعـــت أبحاث الندوة ومناقشاتها فى مجلدين ، العدد ٥٩ من كتاب النادى المذكور .

وقد صدر الكتاب بعنوان : " قراءة جديدة لتراثنا النقدى " وضـــم آراء أعلام الدراسات النقدية والبلاغية واللغوية من أنحاء الوطـــن العربـــى ، ولا غنى لمن يتصدى للكتابة فى التراث العربى من الوقوف على هذه الآراء ، ما دمنا ننشد تواصلا معرفيا حقيقيا .

كما أغفل كتاب محمد مصطفى المراغى : " تاريخ علـــوم البلاغـــة والتعريف برجالها " ١٩٥٠ ، وقد قام فيه بمناقشة التصورات التراثيـــة فـــى الدرس البلاغى ونقدها .

ويعد كتاب د. شوقى ضيف : البلاغة تطور وتاريخ ١٩٦٥ ، كتابـــا تأسيسيا فى الدرس البلاغى العربى الحديث " لاشك أن الباحثين المحدثين فـــى الدرس البلاغى قد أفادوا منه فى قراءتهم للتراث البلاغـــى العربـــى وتتبـــع

ظواهره وأعلامه ومؤلفاتهم ــ من ناحية ــ وفى استهدائهم بآراء د. ضيف المسائلة للدرس البلاغى العربى ، من ناحية أخرى .

فقد ميز د. محمد العمرى فى عرضه لمراحل الدرس البلاغى العربى الحديث بين مرحلتين : مرحلة السرد التاريخى وتلخيص محتويات الكتب ، وطابع هذه المرحلة هو السعى إلى المحافظة على الرؤية التراثية ، وهى تدخل فى هم إحياء التراث والتعريف به وتقريبه من القراء ، ومرحلة الكتابة من منظور حداثى لسانى واع باختياره ومخلص له ، وفى رأيه أن كتاب " البلاغة تطور وتاريخ " أحسن من يمثل مرحلة السرد التاريخى وتلخيص محتويات الكتب إن لم يكن ممثلها الوحيد ، للعالم الكبير د. شوقى ضيف الذى اعتبره مدرسة قائمة الذات ، " **مدرسة التمهيد** " ، يقول : " إنى أقوم هذا الكتاب من منظورين : منظور المؤرخ ومنظور القارئ المنتفع ... إنه أحد الجسور البلاغية التى ينبغى إعادة صياغتها اليوم ، وتكميلها أو حتى ترميمها ، وبهذه القيمة المصادرية التمهيدية المدخلية يمتد فينا هذا الكتاب وهذه الكتابة ، ولكن أكثرنا يستهلكها سرا ، وينقصها جهرا ، والدليل على ذلك عدد الطبعات والمبيعات "[٢] ولم يرد فى كتاب المرايا المقعرة ما يشير إلى أن المؤلف استهلكها سرا أو جهرا ، إن الكتاب ــ بلا شك ــ يمثل حلقة فى الدرس البلاغى تجدر بالبناء على هدى منها إذا كنا ننشد التفكير للأمام .

---

[٢] د. محمد العمرى : البلاغة العربية أصولها وامتداداتها ص ٨ أفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ١٩٩٩

بل ماذا قال فى نظرية النظم (ص ٢١٨ وما بعدها) التى أفـاض د. محمد زكى العشماوى فى تحليلها وربطها بمعطيات العقل الغربى الحديث فى كتابه " قضايا النقد الأدبى بين القديم والحديث ط٣ ١٩٧٨ " ولم يأخذ نفســه بالتحقيق فى أول من أطلق على فكرة النظم عند عبد القاهر كلمة نظرية .

ولقد رجع (ص ٢٤٢) إلى دراسة محمد عابد الجابرى عن النحــو فى المجلد ٦ ديسمبر ١٩٨٥ ، وهو المجلد الوحيد الذى رجع إليه من مجلــة فصول ، وأغفل دراسة د. عبد القادر حسين أثر النحاة فى الدرس البلاغــى ١٩٧٠ ، ومن بعدها أغفل دراسة د. أحمد سعد محمد التى أفردها للحديــث عن " الأصول البلاغية فى كتاب سيبويه ١٩٩٠ " ، وماذا أضاف عن سـلطة النحو (ص ٢٤٠ ، ٢٤١) بعد ما قاله د. مصطفى ناصف فى كتابه " النقـد العربى نحو نظرية ثانية ٢٠٠٠ " ،

وماذا قال فى " النحو بين عبد القــاهر وتشومســكى " (ص ٢٤٦ ، ٢٤٧) بعد ما قاله د. محمد عبد المطلب فى دراسته بهذا العنــوان بمجلــة فصول مجلد ٥ عدد أول ١٩٨٤ ، وقد أغفل تماما الدراسات النحوية للدكتـور تمام حسان : الأصول ١٩٩١ ، اللغة العربية معناها ومبناهــا ١٩٩٤، كمـا أغفل غيرها ، بل لقد أغفلت جهود د. محمد عبد المطلب علــى غزارتــها : البلاغة والأسلوبية ٩٤ ، قضايا الحداثة عند عبد القـــاهر الجرجــانى ٩٥ ، البلاغة العربية قراءة أخرى .

ومن المؤلفات التى جــاء كتاب المرايا المقعرة خاليا مـــن الإشـــارة إليها : د. عبد الواحد علام : قضايا ومواقف فى التراث البلاغى ١٩٧٩ ، د. مصطفى ناصف : " الصورة الأدبية ١٩٥٨ " و" اللغة والبلاغـــة والميــلاد

الجديد ١٩٩٢ " ، د. رجاء عيد : فلسفة البلاغـــة ط٢ ، ١٩٨٨ ، د. محمـــد العمرى : " بلاغة الخطاب الإقناعى " ، " البلاغة العربية أصولها وامتداداتها ١٩٩٩ " ، د. سعد مصلوح : مشكلة العلاقة بين البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية ١٩٨٨ ، د. منير سلطان : بلاغة الكلمة والجملة والجمل ١٩٨٨ ، د. محمد خطابى : لسانيات النص ١٩٨٨ ، د. صلاح فضل : بلاغة الخطـــاب وعلم النص ١٩٩٢ ، د. جميل عبد المجيد : " البديع بين البلاغـــة العربيـــة واللسانيات النصية ١٩٩٨ " ثم " بلاغة النص ٢٠٠٠ " ، د. شـــوقى علـــى الزهرة : " الأسلوب بين عبد القاهر وجون ميرى ١٩٩٦ " ، ولقـــد انطلـــق كاتب هذه السطور من عمق التراث فى أبحاثه : " ظاهرة الاســـتقصاء فـــى الشعر الجاهلى ٩٤ " و " قضية الطبع والتكلف فى التراث النقدى والبلاغى . قراءة جديد ٩٥ " و " السؤال ، رؤية فى التنظير البلاغى ١٩٩٦ "

لقد توهم د. حمودة أن حقل الدراســات الأدبية ، النقدية والبلاغية من الغفلة بحيث يقبع مستكينـــاً منتظراً المُخَلِّص الذى يهبط عليه من السمـــاء بـــ (البراشوت) ليمسح حصاد جهود باحثين مخلصين لجذورهم على مر السنين فى نمط من أنماط القطيعة المعرفية ، ويبدو أن د. حمودة قد أصبح شــــغوفاً بلعبة المرايا حتى غدت بالنسبة له ممارسة عملية وواقعاً فعلياً ، فرأى نفســـه فى المرايا المحدبة ورأى الباحثين فى حقل الدراسات البلاغية والنقديـــة فـــى مرايـــا مقعرة ، ولا شك أن الرؤيتين تنطويان على قدر كبـــير مـــن خـــداع المرايا .

التركيز على السلبيات

(١)

أو استهلاك الجهد والوقت فى التركيز على السلبيات الذى يستتبعه فى الغالب تجاهل الإيجابيات ، ولعل الكم الذى أفرده صـــاحب المرايـــا لانتقـــاد السلبيات أضعاف ما أفرده للحديث عن الإيجابيات الذى لم يخل من تداخـــلات لا تحصى فى الحديث عن السلبيات ، إذ يعد كتابه الأول " المرايا المحدبـــة " شكلاً من أشكال التركيز على سلبيات النشاط العقلى فى العصـــر الحديـــث ، ويأتى القسم الأول من كتاب " المرايا المقعرة " متناولاً القضية نفسها ، وكأنه إتمام لمؤلَّفه الأول .

ولعل أحد مظاهر التركيز على السلبيات يتداخل مع مظاهر القطيعـــة المعرفية ؛ لأن التركيز على السلبيات أخذ يتردد بين المؤلفات الحديثـــة فـــى البلاغة بشكل لافت ، حتى غدا توجيه النقد للنظرية البلاغيـــة القديمـــة مـــن الخصائص الملازمة لأى مؤلَّف يتناول الدرس البلاغى ، ومن ثـــم فإننـــا إذا نظرنا إلى الأمر باتساع وجدنا فى التركيز على السلبيات مظهراً من مظـــاهر القطيعة المعرفية .

ولا نقصد هنا ــ بالطبع ــ التركيز على سلبيات الـــدرس البلاغـــى القديم ، ولكننا نقصد التركيز على السلبيات بوجه عام ، فإن ما يشـــغلنا هـــو عموم القضية ، فإن صاحب المرايا قد نهج نهجاً فى التركيز على الســـلبيات

يختلف فى شكله عن النهج الذى انتهجه كثير ممن تصدوا للبحث البلاغـــى ، وما الجمع بين النهجين هنا إلا لأن الآثار المترتبة عليهما واحدة .

فالحق أن هذه سمة لا تقتصر على صاحب المرايا وحده ، ولكنها تعد إحدى سمات العقل العربى ـــ فى الغالب الأعم ـــ التى سيطرت علـــى هـــذا المجال المعرفى وربما على غيره من المجالات ، ولكن سبب حضور صاحب المرايا هنا أنه هو المتصدى للحديث عن العقل العربى والنظريـــة العربيـــة اللغوية والنقدية .

وكأن المفكر العربى مدفوع بقوة نحو محاولـــة إثبـــات فســـاد رؤى الآخرين أكثر من محاولة خلق رؤى جديدة مبتكرة وتدعيمها ، وكـــأن هـــذا الهدف يلهيه عن أن يكون حلقة فى منظومة فكرية يتواصـــل فيـــها اللاحـــق بالسابق ، وربما جاء هذا نتيجة طبيعية للرغبة المسرفة فى محاولـــة إثبـــات الذات ، التى انحدرت بهذا العقل وتنحدر إلى مهاوى العقم والجمود .

وينبغى ألا يفهم أن ما نعنيه هنـــا هو نفـــى النظـــرة النقديـــة لآراء السابقين ، لا ، لأن هذه النظرة النقدية ضرورة لا جدال فى أهميتها ، ولكـــنَّ ما نعنيه هنا بحق هو ألا تستهلك هذه النظرة النقدية الأجيال ، وتفنى الجـــهود على مر العصور ، ولنا أن نذكر ببالغ الأسف أن هذا الجهد الاستهلاكى هـــو الذى ما يزال يخيم على العقل العربى ، ومن ثم فهو فى الوقت نفســـه مـــن أعنف أسباب إعاقة العقل العربى .

فمنذ مطلع هذا القرن حتى يومنا هذا والآراء تتـــشعب حول دراســـة البلاغة العربية ، بين الهجوم عليها والدفاع عنها ، فى حوار بيـــن طرفيـــن متناقضين كبيرين يمثلان الاتجاهين الكبيرين فى دراسة البلاغة العربية ، وقد

أفرز هذان الاتجاهان عدة آراء وأنتجا الكثير من المؤلفات ، ويمكننا أن نحدد هذين الاتجاهين بأنهما :

اتجاه التقليد ، واتجاه المساءلة والرفض

أما أصحاب الاتجاه التقليدى فقد انصرفت جـــهودهم نحـــو تكـــرار المقولات النظرية القديمة أو إعادة صياغتها ، أو تدعيمها ببعض الشواهد من الأدب الحديث .

وأما اتجاه المساءلة والرفض فيرى بعض أصحابه عـــدم صلاحيـــة الخطاب البلاغى للوجود ، بوصف البلاغة أداة نقدية ، فهى عاجزة ، لا عـــن مقاربة النصوص والاضطلاع بمهمة تحليلها فقط بل عـــاجزة أيضـــاً عـــن الاستجابة لمحاولة التطور ، وبذلك يحمل هذا الرأى يأساً ، كما يحمل علـــى يأس ، من صلاحية البلاغة و من إمكان تطورها فى آن واحد [١] .

وعلى الرغم من أن جانباً من جوانب هذا الاتجاه الأخير أكثر إيجابية فى موقفه من التراث البلاغى فإنه يحملنا على التساؤل : إلى أى حد وفـــق القائلون به فى تطوير الدرس البلاغى العربى ؟

ويصدق على التراث البلاغى ما قاله د. جابر عصفور عن موقف دراســـات المحدثين للتراث النقدى :

" فإن أغلب الدراسات المتاحة عن التراث النقدى تكاد تتحـــرك فـــى منطقة واحدة ، محدودة ، من مناطق التراث النقدى ، وتنظر إلـــى مادتـــها نظرة جزئية ، تفصل الظواهـــر عن سيـــاقها ، وتعالج المعطيات معالجـــة نقلية ، اتباعية ، تقصر حتى عن الوصول إلى الآفاق الرائدة التـــى وصـــل

---

[١] راجع فى ذلك د. سامى سويدان : فى النص الشعرى

إليها أمين الخولى أو طه حسين أو طه إبراهيم فى الثلاثينيـات مـن هـذا القرن ، والنتيجة هى ما يمكن أن نلاحظه من تلفيقية المنهج ، وعشـوائية المنظور ، ونقلية الفهم على نحو لا يمكن معه أن تعـد هـذه الدراسـات " قراءة " بالمعنى الدقيق ، لأسباب متعددة أبرزها أن هذه الدراسات تخلو مـن أى وعى نظرى بموضوعها ، خلوها من أى تأمل نقدى لمنهجها " (٢)

الواقع أن محاولات التدليل والاستشهاد على ضيـق أفـق البلاغـة وعجزهـا والتـأكيد على ضرورة تطويرهـا أكثر من محاولات التطويـر نفسها ، فإن أكثر هذه المحاولات لم يقم على رؤية متكاملة فى نقد المنطلقـات النظرية للبلاغة ، أو التأسيس لمنطلقات تقوم عليها الرؤية المطـوِّرة ، فقـد وقفت هذه المحاولات — فى الغالب — على بعض الملاحظات الجزئية مُتَقَنِّعة بتحديث الشواهد ، وإن كنا لا ننكر أنه قد توفر لبعضها الرؤية الثاقبة الجديرة بالتأمل والدراسة ، ولكن أصحاب هذا المنحى النقدى قد ساروا فـى اتجـاه يعتمد على التأمل فى البلاغة التقليدية ويقوم على تسجيل الملاحظـات علـى نقاط الضعف فيها .

---

(٢) د. جابر عصفور : قراءة التراث النقدى ، دار سعاد الصباح ١٩٩٢ م ص ٢٨

(٢)

لقد تحددت النظرة العربية فى رفض بعض نماذج التناول القديم دون البعض ، ولعل نظرة السكاكى ــ ومن تلاه من البلاغيين القدماء ــ كانت أكثر هذه المعالجات القديمة تعرضاً للنقد عند كثير من المحدثين (٣) ، فقد وصفت بأنها " أولى الخطوات الواسعة بعد قدامة بن جعفر فى النزول بالبلاغة إلى هذا الدرك الذى ترى عليه البلاغة الآن " (٤) ، ويحدد د. صلاح فضل موقف البلاغة القديمة بقوله : " إذا كانت البلاغة القديمة قد حاولت اكتشاف أنواع التعبير المختلفة وتسميتها وتصنيفها ، فإن هذه هى الخطوة الأولى المعتد بها فى إقامة جميع العلوم ، ولكن الملاحظ أنها وقفت بعد هذه الخطوة ... ولم تبحث عن الهيكل أو البنية العامة لهذه الأنواع المختلفة ، مما أدى بها إلى العقم والتجمد " (٥) .

وقريب من الموقف العربى مجد موقف الغربيين من بلاغتهم ، فقد

---

(٣) أمين الخولى : مناهج تجديد ، ص ١٣٠

د. بدوى طبانة : البيان العربى ، ص ٢٠٠

أحمد مصطفى المراغى : تاريخ البلاغة العربية والتعريف برجالها ، ص ٣٢

د.شوقى ضيف : البلاغة تطور وتاريخ ، ص ٢٩٦

(٤) د. محمد عبد المنعم خفاجى (محقق) كتاب الإيضاح للقزوينى ص ٦٠

(٥) د. صلاح فضل : النظرية البنائية فى النقد الأدبى ، ص ٣٦٥

حدد (إ.أ. ريتشاردز I.A. Richards) هذا الموقف في كتابه " فلسفة البلاغة The Phelosophy Of Rhetoric " بقوله : " إن البلاغة اليوم أكثر القفار إيحاشاً وأقلها فائدة عند المبتدئ في اللغة الإنجليزية ، فقد انحطت حتى صرنا نفضل أن نطوح بها في الجحيم عن أن نكلف أنفسنا عناءها ، مالم نجد سبباً يسعفنا على الاعتقاد بأنها يمكن أن تكون دراسة تستجيب للحاجات الضرورية بنجاح " [٦] ، ولنا أن نتساءل : أيكون السبب في محاولة الإبقاء على البلاغة ــ أو تطويرها ــ هو الحاجة إليها أم أنه مجرد حرص ــ متذرع بروابط عاطفية ــ على التراث ؟ " من المؤكد أن تراثنا أو تراث الآخر ، ليس جوهراً نقلياً ، اكتمل دفعة واحدة أو دفعات ، في الماضي ، فلم يبق سوى تكراره ، أو إلغائه وإنما هو بعض خبرة النوع الإنساني المرتبطة بشروطها التاريخية ، والتي تقبل احتمالات الزيادة والتطور ، أو التغير والتحول في الوقت نفسه " [٧] .

وبذلك تكون تلبية الحاجة هي المبرر الوحيد للإبقاء على هذا الجانب من التراث (وفق مقولة ريتشاردز) كما أنها المبرر الوحيد أيضاً للإفادة من ثقافة الآخر وفق مقولة د.سعد مصلوح : " وعلينا حين نرهف آذاننا لتسمع أصوات العصر أن نجعل عيوننا وعقولنا على مشكلاتنا ، إذ لا قيمة عندنا لفكرة تستفاد من ثقافة أخرى ، إلا بقدر ما تلبي حاجة ، أو تحل مشكلاً ، أو

---

[٦] ريتشاردز : فلسفة البلاغة ، ص ٦

[٧] جابر عصفور : مقدمات منهجية ، الجلد الأول ، ص ١٨٨

تضيء سبيلاً " (٨) ، والواقع أن هذه الضوابط غالباً لم تؤخذ في اعتبار كثير من الباحثين ، الأمر الذي جعل الأهداف غير واضحة عند كثير من التقليديين والمسائلين على حد سواء .

ولكننا ـــ مع ذلك نجد أكثر الكتب التي تُحبَّر في دراسة البلاغة في البيئة العربية في العصر الحديث تقوم على الرؤية القديمة ولا تنكر هذه الرؤية بوصفها رؤية قديمة ولكن بوصفها هي الرؤية البلاغية فحسب ، بل راحت بعض المؤلفات تدافع عن هذه الرؤية وكأنها أمر عقائدي لا يخضع للتطور أو التغير ، وبذلك تصل إلى حد رفض التجديد ، وتصف الدعوة إليه بأنها " هجمات صبيانية وجهها المجددون " (٩) .

ولنطرح هذا الموقف لحكم القارئ ، ولنحاول مناقشة بعض القضايا التي نهدف منها إلى تقويم المواقف الإيجابية ، ويتحدد أول هذه القضايا في السؤال التالي : **أهي بلاغة جديدة أم بلاغة مجددة ؟**

إزاء مناقشة فكرة التطوير والابتكار في البلاغة ينبغي أن يكون حاضراً في ذهننا أن " هناك نوعين مختلفين من التقدم في المعرفة : أحدهما يناظر نقلة جديدة (حجة جديدة) ضمن نطاق القواعد المستقرة ، والثاني

---

(٨) د. سعد مصلوح : مشكلة العلاقة بين البلاغة العربية واللسانيات الأسلوبية ، مرجع سابق جـ ٢ ، ص ٨٢١

(٩) د. محمد محمد أبو موسى : دلالات التراكيب ـــ دراسة بلاغية ـــ مقدمة الطبعة الأولى ١٩٧٨ ، ص ٢٩ ، ثم كرر الموقف مؤكداً عليه في الطبعة الثانية ص ٤

يناظر ابتكار قواعد جديدة " (١٠) ، والواقع أن الاتجاهات المعاصرة فى دراسة البلاغة ليست قائمة بمعزل عن البلاغة القديمة ؛ يستوى فى ذلك المحاولات المبذولة لتطوير النظرية البلاغية ، أو المحاولات القائمة على نقد التصورات القديمة أو نقضها هادفة إلى إحلال رؤى جديدة محلها ، وقد ذهب الباحثون العرب وغير العرب فى التأكيد على هذه الحقيقة ، فيذهب (ريتشاردز) إلى أن البلاغة القديمة فيها " الكثير الذى يمكن للبلاغة الجديدة أن تنتفع منه ، والكثير أيضا مما يمكن أن يكون مفيدا " (١١) ، ويؤكد (بيير جيرو) على أن البلاغة أكثر العلوم القديمة انضباطا ، " وأن أسلوبية التعبير كما صممها (باللى) قد نشأت عن البلاغة القديمة ولكن بطرق جديدة ، ولذا فإن دراسة البلاغة للصور ما تزال راهنة لم تتجاوزها دراسة أخرى حتى يومنا هذا " (١٢) .

كما نجد كذلك أن النموذج السيميائى المقترح عند هنريش بليت لتحليل النص يقوم على عناصر البلاغة الأوربية القديمة فى مكوناتها الكبرى (التركيب ــ التداول ــ الدلالة) (١٣) ، ويقدم بليت مبررين لعملية إعادة بناء البلاغة بوصفها منهجا لتحليل النصوص : الأول ذو طبيعة تاريخية ، فهناك

---

(١٠) جان فرانسوا ليوتار : الوضع ما بعد الحداثى ، ترجمة أحمد حسان ، ص٦١

(١١) ريتشاردز : فلسفة البلاغة ، ص ١٣

(١٢) بيير جيرو : الأسلوبية ص ١٧

(١٣) هنريش بليت ، البلاغة والأسلوبية ، ص ٤١

د. محمد العمرى : نظرية الأدب ص ١٣٤

أمر أكيد وهو أنه على طول تاريخ وجود نظرية بلاغية فإن نصوصاً مختلفة (خطب ومواعظ ورسائل وأشعار ...) تنتج حسب قواعدهـــا ، فـــإذا مـــا استعملنا ــ بعد ذلك ــ المقولات البلاغية لتأويل تلك النصوص فإننا سنســألهم فى كشف تركيبها الشكلى القصدى ، فما كان متصوراً عـــن طريـــق الفكـــر والتعابير المعيارية أمكن إدراكه اليوم بفضل الوصف العلمـــى ، إن وظيفـــة المنهج البلاغى المطبق بهذا الشكل تكمن فى إعادة البناء ، إنها تجد موقعـــها فى الهرمنيوطيقا التاريخية ، الثانى : ذو طبيعة جوهرية ومنهجية ؛ فقد أظهر النسق البلاغى ــ عبر قرون ــ قابلية للاســتمرار ، بـــل ومرونـــة تســـمح بالتمادى فى تطبيقه على نصوص جديدة " [١٤] .

وينطلق (ر.برادفورد R.Bradford) فى كتابه : " الأسلوبية Stylistics" واضعـــاً فـــى اعتبـــاره البلاغـــة بوصفهـــا الجـــذور التاريخيـــة للدرس الأسلوبـــى [١٥] .

ويلفت د. محمد العمرى إلى خصائص يمكن استثمارها فى البلاغـــة العربية القديمة بقوله : " إن المتأمل لنشأة البلاغة العربية وتطورها ســيلاحظ كيف أن حضور المخاطب قد أدى إلى كثير مـــن الظواهـــر التـــى تســـتحق التسجيل وتدعو إلى إعادة قراءة التراث البلاغى العربى ومساءلته وتصنيفـــه من جديد ، إذ سيلاحظ وجود بلاغتين متمايزتين ومتكاملتين : بلاغة الخطابة

---

[١٤] هنريش بليت : البلاغة والأسلوبية ، ص ١٦

[١٥] R. Bradford : Stylistics, P. 3

وبلاغة الشعر " (١٦) .

ويؤكد د. محمد عبد المطلب على أن " صلاحية البلاغة القديمة لأداء مهمة نقدية لا تقل أهمية عن الدراسة الأسلوبية ، مـــع بعــض الإجــراءات التعديلية التى تعطى لأدوات البلاغة طــاقة تحليلية قادرة على التعامل مـــع السطوح والأعماق ــ ثم يقرر ــ بل أكــد لــى أن كثــيرا مــن الدارســين الأســلوبيين والبنيويين لا تفترق أدواتـــهم عــن الأدوات القديمــة إلا فـــى المسميات فحسب ، مع إعطاء هذه الأدوات طاقة شمولية بجانب إجراءاتـــها الجزئية " (١٧) ، بهذا التقديم يتأكد لنا ضرورة ارتبــاط التجديد بالمنطلقــات القديمة ، الأمر الذى يستلزم منا الانتباه إلى خصوصيات فى البلاغة العربيـــة ــ سلبية أو إيجابية ــ لا يكفى معها أن نتمثل المناهج الغربية الحديثـــة فـــى خطواتنا الطامحة إلى تجديد الدرس البلاغى العربى .

---

(١٦) د. محمد العمرى : نظرية الأدب فى القرن العشرين ، ص ١٢٥

(١٧) د.محمد عبد المطلب : هكذا تكلم النص ، استنطاق الخطاب الشعرى لرفعت سلام ، ص ٧

(٣)

نقد التصورات البلاغية القديمة

بين القطيعة المعرفية والتركيز على السلبيات

يتضح لنا مما سبق أن بعض محاولات التجديد فى البلاغة تنطلق من نقاط الضعف والقصور فى البلاغة القديمة ، الأمر الذى جعل الأنظار تتجـــه إلى التركيز على بيان أوجه القصور فى البلاغة القديمة ، ولعلنا لا نجـــانب الصواب إذا ذهبنا إلى أن هذا التركيز كان أكبر هَمِّ الدراسات البلاغية العربية الحديثة ، مما جعل التجديد المبنى على رؤية عربية خالصة يسير ببطء منـــذ محاولات أمين الخولى ، ومن ثم كانت محاولات التدليل على بعض مواطـــن الخلل فى الدرس البلاغى القديم والتأكيد على ضرورة تطويرها أكـــثر مـــن محاولات التطوير نفسها ، الأمر الذى ينبغى أن يدفعنا إلى ضرورة تجـــاوز هذا الموقف لما فيه من ثبات لا يقل خطورة عن الثبات فـــى دائـــرة التقليـــد الخالصة .

وتتمثل أكثر أوجه النقد تكراراً فى تناولات الدراسات البلاغية الحديث فيما يأتى :

النظرة الاجتزائية

لا تدافع فى أن النظرة الاجتزائية سيطرت على التراث البلاغى تنظيراً وتطبيقاً ، بحيث يقل أن نجد معالجة لنص كامل فى التراث البلاغى ، وبذلك أصبح التنظير البلاغى تنظيراً للشاهد و المثال ، وقد كانت التفاتة أمين الخولى إلى انحصار البحث البلاغى القديم فى حدود الجملة مبكرة ، إذ نبه إلى أن " البحث فى علم المعانى إنما هو بحث فى طرفى الجملة ــ المسند والمسند إليه ــ وتوابعهما ... وفى أبحاث البيان لا تجوز دائرة الجملة أيضاً ، إلا أن تكون جملاً متماسكة فى أداء معنى واحد ... أما وراء بحث الجملة فلا تجد شيئاً " (١٨) ، وقد أشار فى " فن القول " إلى أن " دائرة بحث البلاغة محدودة بالألفاظ مقصورة على الجمل ، ومهما كثرت الجمل فإنها تكمل معنى يجتمع فى جملة واحدة " (١٩) .

وإذا كان أمين الخولى قد التفت إلى هذه الملاحظة فى الثلاثينيات من القرن العشرين فإن هذه الملاحظة نفسها أخذت تتردد بين أيدى البلاغيين بعده حتى نهاية هذا القرن ، ولكن من الحرى بالإشارة أن واحداً من هؤلاء البلاغيين لم يُشر إلى سبق أمين الخولى ، ومن ثم لم تلق هذه الأقوال من يتقدم بها خطوة تتجاوز بها موقف الرصد والنقد ، وبذلك ركنت الدرس البلاغى إلى التكرار والترديد لهذه المآخذ ، فوجدت دعوة أمين الخولى صداها فى ترديد عقيم لدعوته دون الاضطلاع بمهمة التنفيذ التى تتقدم بها

---

(١٨) أمين الخولى : مناهج تجديد ، ص ١٦٦

(١٩) أمين الخولى : فن القول ، ص ٥٢

عن الخطوة الأولى ، فدار بذلك الدرس البلاغى فى فلك التفكير فى المكـان ، وضاعت جهود البلاغيين فى التركيز على السلبيات الذى يحمل فى طيه مظهراً من أقوى مظاهر القطيعة المعرفية فى هذا المجال .

وقد تكررت الإشارة إلى هذا الجانب السلبى عند د. شوقى ضيف فى كتابه : " البلاغة تطور وتاريخ " إذ بيَّن أن البلاغيين القدماء " **صبوا عنايتهم على الكلمة والجملة والصورة** " ، ويذهب فى تعليل ذلك إلى أنهم " **قصدوا بقواعدهم تعليل بلاغة العبارة القرآنية وما تحمل من خصائص تعبيرية وصور بيانية ، وأيضاً من الأسباب التى دفعتهم فى هذا الاتجاه طبيعة شعرنا القديم ، إذ كان فى جملته وجدانياً غنائياً يجرى فى أسلوب عام واحد سواء فى معانيه أو فى صوره وأخيلته وصيغ تعبيره وتعارف الشعراء على أن كل بيت فى القصيدة وحدة مستقلة ، وهذه الوحدة هى أساس البلاغة والجمال الفنى ، وبذلك لم توجد فى محيط الشعراء ولا فى محيط البلاغيين نظرة شاملة عامة للقصيدة ، بل ظلت نظرتهم تنصب على الجزئيات وأفراد الأبيات والعبارات** " (٢٠) ، وقد أشار إلى سبق عبد القاهر الجرجانى إلى ملاحظة الربط بين الفقر وبحث الصلة بينها ، ولكن البلاغيين لم يستغلوها بعده .

---

(٢٠) د. شوقى ضيف : البلاغة تطور وتاريخ ص ٣٧٦ ، وننبه إلى أن الشق الثانى من تعليل النظرة الاجتزائية يجعل الظاهرة البلاغية مسئولة عن هذه النظرة ، وفيما أرى : إن المسئولية كاملة على القاعدة البلاغية ومقعديها وليست على الظاهرة ومنتجها من الشعراء مثلاً .

كما تكررت الإشارة نفسها عند د. رجاء عيد ، وقد جاءت معالجتـــه إيجابية فى جمعها بين الرؤية النظرية وبعض المعالجات التطبيقية فى الوقوف على " بلاغة القصيدة التى تتفوق على شرائط البلاغيين وتستطيع بمتابعة تلك الأدوات فى القصيدة وتداخلها فى البناء الفنى أن تثرى ثـــراءً فنيـــاً يمـــتزج بالمضمون " (٢١) .

كما يشير د. محمد عبد المطلب إلى الملاحظة نفسها بوصفها شـــاهداً على قصور البلاغة العربية عن إدراك النص فى بنيته المتكاملة المترابطة إذ " لم تحاول الوصول إلى بحث العمل الأدبى الكامل ، كما لم يتسَنَّ لها دراســـة الهيكل البنائى لهذا العمل " (٢٢) .

ولعل د. صلاح فضل لم يتجاوز التركيز على هذا الجانب الســـلبى إذ يقول : " إن المعيار البلاغى الذى يقاس عليه الشعر والأدب ويعرض علـــى محكه الإنتاج الإبداعى ... كان يعتمد على الشاهد الذى يتم اختيـــاره بشـــكل عشوائى متعسف ، يتوالد ويتردد من مؤلف لآخـــر ، دون محاولـــة لإقامـــة التوازى بين النظرية والتعبير " (٢٣) .

وإذا عدنا إلى مقولات أمين الخولـــى وجدنـــاه (١٩٢٩ م) يجـــهر بالدعوة التى كان من شأنهـــا أن تنتقل بالدرس البلاغى العربى إلـــى آفـــاق

---

(٢١) د. رجاء عيد : فلسفة البلاغة ، ص١٢٥

(٢٢) د. محمد عبد المطلب : البلاغة والأسلوبية ، ص ٢٥٩

(٢٣) د.صلاح فضل : بلاغة الخطاب وعلم النص ، ص ١١٠

أرحب ، إذ يرى أمين الخولى فى النموذج النظرى الذى قدمه بوصفه الصيغة الجديدة التى يقترحها " توسعة دائرة البحث وبسط أفقه ، فلا يقصر على الجملة كما كان فى القديم ، من عمل المدرسة الكلامية ، الذى لم تأت المدرسة الأدبية بعده بشيء ذى غناء ، فإننا اليوم نمد البحث بعد الجملة إلى الفقرة الأدبية ، ثم إلى القطعة الكاملة من الشعر أو النثر ، ننظر إليها نظرتنا إلى كل متماسك ، وهيكل متواصل الأجزاء ، تقدر تناسقه ومجال أجزائه ، وحسن ائتلافه ، ونتحدث فيما لابد منه فى هذه النظرات من شئون فنية " (٢٤) .

وإذا كان ثم تواصل معرفى فى الدرس البلاغى المعاصر فلا نكاد نظفر به إلا عند د. سعد مصلوح فى دراسته : " مشكلة البلاغة العربية واللسانيات الأسلوبية " إذ يربط مقترحه بما قال أمين الخولى ، ناقداً بعض أوجه القصور التى رآها فى معالجات أمين الخولى ، كاشفاً عن الإيجابيات التى وجدها فى محاولة الخولى ، وسأضع بين يديك تعليقه فيما يخص النظرة الاجتزائية ، والدعوة إلى تجاوز بلاغة الشاهد والمثال :

" على أنه يبقى من صيغة الخولى تلك اللفتة الرائعة الداعية إلى مجاوزة البحث البلاغى مستوى الجملة إلى مستوى ما وراء الجملة فى الفقرة والنص ، ويزيدنا عَجَباً منها وإعجاباً بها أن ذلك كان منه فى تاريخ متقادم يعود إلى عام ١٩٣١ ، وأَعْجبُ كيف مرت هذه الدعوة ، ولم تجد لها من

---

(٢٤) أمين الخولى ، فن القول ، ص ١٨٦

صدى على صعيد النظر إلا فيما كتبه رصيفه " أحمد الشايب " فـــي كتابـــه " الأسلوب " الذى صدرت طبعته الأولى عام ١٩٣٩ ، أما على صعيد التطبيـق فلم نعثر لها على أثر ، وكانت هذه الفكرة حَرِيّة ، إذا وجدت من يتابعها مــن اللسانيين والبلاغيين ، أن تحدث ثورة فى الدرس اللســـانى والبلاغـــى فـــى العربية ، تنتقل به من " نحو الجملة " و " بلاغة الجملة " إلى " نحو النـــص " و"بلاغة النص" ، والمرء يكون أشد إحساساً بعظمة هذه اللفتة حين يعلـــم أن هذه الفكرة لم تكن قد تحددت لها قسمات وملامح واضحة فى أدبيات الـــدرس اللسانى فى أوروبا حتى ذلك الوقت ، إذ يرجع تاريخ أول مقـــال معـــروف نصب نفسه لدراسة البنية النحوية فى النص إلى عام ١٩٥٢ ، وكان كاتبه هو زيليج هاريس Zellig Harris اللسانى المخضرم ، الذى كان من صناع النقلـــة من المنهج الوصفى إلى التوليدية التحويلية فى اللسانيات الأمريكية .

وتبدو أصالة الفكرة عند الخولى واضحة فى التماسه العلة لانحصـــار البحث البلاغى داخل أسوار الجملة لا يتعداها إلى ما وراءها ، إذ يربط بيـــن ذلك وبين رؤية السكاكى للصلة الوثيقة بين المنطق والبلاغة ، وتسويته بيـــن عمل صاحب البيان وصاحب الاستدلال ، يقول الخولى :

(أما وراء بحث الجملة فلا تجد شيئاً ، بل تجد أن الأبحاث التى كان المرجو لها أن تتجاوز الجملة قد وردت إليها ،أُلزِمـــت حدودهـــا فقـــط ، فالبحث فى الإيجاز والإطناب والمساواة مثلاً كان يصح فيـــه النظـــر إلـــى غرض الأديب كله ، وكيف تناوله ، وهل أسهب فى ذلـــك أو أوجـــز .. ، لكنهم لم ينظروا من ذلك إلا إلى الجملة أو ما هـــو كالجملـــة ، وراحـــوا

يفاضلون بين جملة " القتل أنفى للقتل " ، وجملة " فى القصاص حياة " ، كذا بعدد حروفهما ، فهذا التضييق فى دائرة بحث البلاغة أَثَرٌ تسويتها بالاستدلال ، ورجعها إلى المنطق ، وأخذها بنظامه بعدما اشتدت الصلة بينهما ، وزاد عليها ضغطه) .

تلك إذن — فى رأينا — لفتة رائعة لعقل يقظ ، فلله هذا العالم الجليل ، أيَّ رجل كان ! . ولا يخدش إعجابنا بما تقدم أن محاولة رد الأمر فيما كان من انحصار البحث البلاغى فى إطار الجملة إلى ارتباط البلاغة بالمنطق وزيادة ضغط عليها — ليس لها ما يصدقها من تاريخ الدرس النقدى والبلاغى والنحوى ، فالمدار فى كل هذه العلوم كان منذ بدايتها الأولى ، وما يزال فى الغالب الأعم على الشاهد والمثال من بيت أو أبيات قليلة أو جملة ، ومن الظلم أن يحتمل السكاكى ومن سماهم الخولى علماء المدرسة الكلامية الفلسفية وحدهم إصْرَ هذه المعالجة الجزئية ، فهم إنما ساروا على تقليد راسخ الجذور لم يأتوا به من عند أنفسهم ، بل إن تجاوُز التحليل اللسانى حدود الجملة إلى النص هو ، كما ذكرنا ، من إنجازات اللسانيات الحديثة ، ولم ينشط فيه البحث نشاطاً ملحوظاً إلا فى العقدين الأخيرين لأسباب كثيرة ليس هنا مجال تفصيلها " (٢٥) .

---

(٢٥) د. سعد مصلوح : المرجع السابق ص ٨٣٩ ، ٨٤٠ ، وأمين الخولى : مناهج تجديد ص ١٦٦ ، ١٦٧

التعالى المعيارى

لقد كانت المعيارية أحد أوجه القصور التى سيطرت علـــى الرؤيـــة البـــلاغية الغربيـــة القديمة ، إذ كانت هذه البلاغة " تصـــدر عـــن تصـــور معيارى " [٢٦] بوصفها فناً للإقناع يهتم بوضع الأسس التى تُمَكِّن المتحـــدث من تحقيق غايته الإقناعية [٢٧] ، بيد أن ما يصدق على البلاغة الغربيـــة لا يصدق بالضرورة على البلاغة العربية ، وهذا ما لم يتنبه إليه بعض الأعـلام العرب المحدثين ، إذ لم يراعوا الاختلاف فى المنشأ بين البلاغتين ، كما لـــم يتنبهوا إلى اختلاف دواعى هذا المنشأ .

فقد أشار د. عبد السلام المسدى ــ على سبيل المثال ــ إلى التعـــالى المعيارى بوصفه مأخذاً ، ولم يشر إلى الفوارق بين البلاغة العربية والبلاغة الغربية ، فجاءت تعليقه مطلقاً : " إن المحرك للتفكير البلاغى قديمـــاً يتســـم بتصور (ماهىّ) بموجبه تسبق ماهيات الأشياء وجودها " [٢٨] .

وقد أشار د. صلاح فضل إلى أن الانفصام بين الظاهرة والقاعدة نتج عن اتخاذ البلاغة ذلك الطابع المعيارى الناتج بدوره عن الطابع المثالى الذى

---

[٢٦] هنريش بليت : البلاغة والأسلوبية ، ص ١٨

[٢٧] Eco : A Theory of Semiotics : P. 277

[٢٨] د. عبد السلام المسدى : الأسلوبية والأسلوب ، ص ٥٤

كان مسيطراً على العلوم فى هذه العصور مشيراً إلى وجوب اختفـــاء هـــذه النظرة المعيارية المتعالية لأنها " لم تعد تتوافق مع روح العلم الذى تطـــور مفهومه بحيث أصبح يعتمد على التجريـــب ... ، واختفـــى منـــه الأســـاس المعيارى التقويمى اختفاء كلياً ليحل محله الشرح والتفسير ومتابعة الظواهـــر فى تشكلها وحراكها والبحث عن وظائفها المتعددة ، كل ذلك قد آذن بانتـــهاء عصر التعريفات المنطقية القبلية الدائمة بشكل لا رجعة فيه " (٢٩) .

وبذلك يتحدد المأخذ على البلاغة العربية فى الانفصام بين الظـــاهرة والقاعدة ، وبذلك أيضاً يتخذ التعالى المعيارى فى البلاغة العربيـــة مفـــهوماً آخر مختلفاً عن المفهوم الذى يعنيه فى ارتباطه بالبلاغة الغربية ، ولكننا نجد هذا المأخذ أيضاً يتردد ويتكرر فى كتب المحدثين بشكل يؤكد منحى التركـيز على السلبيات فى العقل العربى الحديث .

فقد أشار د. رجاء عيد إلى تجاوز الأداء الفنى لحدود القاعدة ، فقدرة الفنان على استعمال بعض الأدوات البلاغية " قد تتجاز كل مايظن البلاغيون أنهم أحاطوا بأبعاده " (٣٠) ، ويأخذ فى تحليل بعض النصوص التـــى تدلـــل على ذلك معقباً بالتنبيه إلى تفـــوق الظواهـــــر البلاغيـــة فـــى الاستعمـــال الفنـــى " عمــــا حصـــره البلاغيون من أغراض مقننة " (٣١) ، مما يجعل المعيارية البلاغية تصطدم بالأداء الفنى ، أو تقف عاجزة حياله .

---

(٢٩) د.صلاح فضل : بلاغة الخطاب وعلم النص ، ص ١١١

(٣٠) د. رجاء عيد : فلسفة البلاغة ، ص ١٢٣

(٣١) المرجع السابق ، ص ١٢٥

ويذهب د. محمد عبد المطلب فى تعليل هذا البعد المعيارى التقعيدى فى البلاغة العربية القديمة إلى " عجزهم عن الربط بين التوصيف الشكلى للثنائيات ، والبنية الحقيقية للنص الأدبى " (٣٢) .

تقسيم البلاغة إلى ثلاثة علوم هى :

البيان والمعانى و البديع

ويعد أمين الخولى أبرز المحدثين الذين تصدوا لنقد هذا التقسيم ، إذ جعله من أوجه التخلية التى يجب طرحها عن الدرس البلاغى بقوله : " ومن التخلية أيضاً إلغاء تقسيمهم الثلاثى لفروع البلاغة جملة : المعانى ، والبيان ، والبديع ؛ وهذا التقسيم فى الحقيقة ثنائى ، فالبديع ليس إلا تابعاً ، وإنما نلغى هذا التقسيم الثنائى لأسباب فى نقدهم هم لهذا التقسيم ، ثم لأسباب فى النظرة الجديدة ، فأما ما فى القديم من ذلك ، فهى أنهم يديرون هذا التقسيم على اعتبارات ضعيفة ، قد وَهَّنوا من أمرها فى قديمهم ؛ فملحظهم فى هذا التقسيم أن علم المعانى يبحث فى المركبات الموزونة وغيرها عن إفادتها لمعان فوق المعنى الأصلى ، وعلم البيان يبحث فى مراتب هذه الإفادة الثانية فى الوضوح ، فثانى البحثين يترتب على الأول ، وهم يقدمون المعانى على البيان ، لأنه بمنزلة المفرد من المركب ، إذ أن رعاية المطابقة لمقتضى الحال ، وهى مرجع علم المعانى ، معتبرة فى علم البيان مع زيادة

---

(٣٢) د.محمد عبد المطلب : بناء الأسلوب فى شعر الحداثة ، التكوين البديعى ، ص ٦٩

شئ آخر ، وهو إيراد المعنى الواحد فى طرق مختلفة ... ومـــا دام الأمــر كذلك ، فالدائرة المرسومة للبحث على غير هذا الأساس ، لا قـــوة لـــها ولا أصل ، فلا وجه اليوم لالتزام حدودها ، والتقيد بها " (٣٣) .

وقد انتقد المراغى ــ أيضاً ــ هذا التقسيم مشيراً إلى أنه لا يـــرى له " وجها صحيحاً ، ولا مستنداً من رواية أو دراية " (٣٤) ، ثم أخذ فى إقامـــة الحجج على بطـــلان هذا التقسيم ومن أهمها التداخل والاختلاط بيـــن هـــذه العلوم فى مراعاة مقتضى الحال ، وتداخل بعض المباحث فى تقسيم بعـــض المؤلفين (٣٥) .

وقد بنى د. أحمد مطلوب نقده لهذا التقسيم على أساس أن " مطابقـــة الكلام لمقتضى الحال تشمل علوم البلاغة كلها " (٣٦) .

ولم يخرج نقد د. عبد الواحد علام فى كتابه " قضايا ومواقـــف فـــى التراث البلاغى " عن هذه القضايا المثارة حول تعريف علوم البلاغة وصلـــة التعريفات بفكرة مطابقة الكلام لمقتضى الحال (٣٧) .

ويلفت د. محمد عبد المطلب إلى بعد آخر فى التقســـيمات البلاغيـــة

---

(٣٣) أمين الخولى : فن القول ، ص ١٨٥

(٣٤) أحمد مصطفى المراغى : تاريخ البلاغة العربية والتعريف برجالها ،ص١١٥

(٣٥) المرجع السابق ، ص ١١٥ وما بعدها

(٣٦) د. أحمد مطلوب : بلاغة السكاكى ، ص ١٣٤

(٣٧) د.عبد الواحد علام : كتابه قضايا ومواقف فى التراث البلاغى ، ص ١٢

القديمة يتعلق بكثرة التصنيف التى ارتبطت بألوان البديع إذ يرى " أن ما تـــم إيراده من ألوان بديعية يمثل غالبية ما ردده البلاغيون ، وإنما كانت الزيـــادة العددية فى بعض المؤلفات نتيجة الحرص على عملية التفريــــع والتشـــعيب وإظهار البراعة والمقدرة ، وكأنما تناسى البلاغيون أنهم أمام ظواهر أسلوبية لها خطورتها تستحق منهم الكشف عـــن طاقاتـــها الفنيـــة ، فانســـاقوا وراء تفريعاتهم ، مما أفسد ــ أحياناً ــ هذه المباحث وعطل فائدتها " (٣٨) .

وبذلك نرى مظهراً من مظاهر تقاطع العقل العربى وتجزيئه وانعزاله عن السير فى بنية منظومة واحدة ، إلى حد ــ كما نرى ــ لم يُشر اللاحـــق إلى شيء مما ذكره السابق ، على الرغم من أن الملاحظات ــ فى الغـالب ــ تكاد تكون واحدة .

فهل صار توجيه النقد إلى المنجز العقلى السابق هو الشغل الشـاغل للعقل العربى فى العصر الحديث ؟

فعلى الرغم مما سار عليه البلاغيون المحدثون ــ فيما يشبه التواتـــر والإجماع ــ فى نقد التقسيم الثلاثى للبلاغة العربية ، فإن هذه الإشارات تعـد أحد أخطر مظاهر التركيز على السلبيات فى معالجات العقـــل العربـــى ، لا لأنها تركيز على السلبيات وما يستتبعه من استهلاك للجهد والوقت فحســب ، ولكن لأن هذا الملحظ ، إذا سلمنا بسلبيته ، فإنه لم يُضر الـــدرس البلاغـــى العربى الحديث بقدر ما جنت عليه سلبيات أخرى هى فى الحقيقة من صنع يد المحدثين وليست من صنع يد القدماء ؛ لأن جناية هذا الملمح علـــى الـــدرس

---

(٣٨) د. محمد عبد المطلب : بناء الأسلوب فى شعر الحداثة ، ص ٦٩

البلاغى تكاد تقتصر على الاستغراق فى التصنيفات والتفريعات عند بعـــض المتأخرين من القدماء ، ولا تكاد تتجاوزهم ، فماذا كان يُضير المحدثين مـــن البلاغيين العرب لو أنهم طرحوا حقبة التفريعات والتقســيمات وبــدأوا فـــى الدرس البلاغى من حيث انتهى عبد القاهر الجرجانى مثلاً ؟

وإذا كان رفض التقسيم الثلاثى للبلاغة إلى علوم : المعانى والبيـــان والبديع يمثل أحد الأسس التى انطلقت منها محاولة أمين الخولى فى تطويــر البلاغة العربية ، فإنه قد أردف هذا الرفض بطرح تقسيم جديد بديـــلاً عـــن التقسيم السابق يتمثل فى بلاغتين : بلاغة الألفاظ وبلاغة المعانى ، ولكن هذا التقسيم المقترح بدوره لم يسلم من النقد ، فقد عرض د. سعد مصلوح لصيغـة الخولى فى تجديد البلاغة العربية فى دراسته المشار إليها آنفاً وانتقد تقســـيم الخولى للبلاغة إلى بلاغة ألفاظ وبلاغة معانى مشيراً إلى أن تلك القسمة :

" من الصعوبة بمكان فى دراسة النص الأدبى ، ولا أدل على ذلـــك من أن الخولى نفسه يضع تحت دراسة بلاغة الألفاظ دراستها (من حيث هى دوال على المعانى ومفهمة لها) وهـــى عبـــارة تنفـــى إمكان الثنائية التـــى يقترحها ، وعندى أيضاً أن القسمة الثلاثية على ما فيها من عيوب – أوضـــح للفكـــر ، وأطـــوع لمباشـــرة النصـــوص من قسمـــة تعيـــد ثنائيـــة اللفـــظ والمعنى فى الدرس الأدبى جَذَعَةً بعد ما توارت بالحجاب ، وما نحســـب أن هذه القسمة يمكن أن تكون طريقاً إلى تأثيل " المدرسة الفنية " فى البلاغـــة ، تلك التى كان " الخولى " ظهيراً قوياً لها ، ومن أجلها جـــهر بدعوتـــه إلـــى

وجوب " هجر المدرسة العلمية فى دراسة البلاغة " (٣٩) .

لعل هذه الظواهر السلبية هى الأكثر تكراراً فى مؤلفات البلاغيين المحدثين ، وثم ظواهر أخرى تكررت فى هذه المؤلفات بنسب متفاوتة ، منها " الجمود والجفاف والتعقيد " فى صياغة النظريات البلاغية القديمة ، وقد أشار إلى هذا المأخذ غير واحد من المحدثين فى طليعتهم أمين الخولى الذى ربط هذه الصفات بعلاقة البلاغة بالمنطق والاستدلال (٤٠) ، كما التفت المراغى إلى هذا المأخذ ملقياً بالتبعة على السكاكى لعقده فصلاً عن الاستدلال فى كتابه مفتاح العلوم (٤١) .

لعل محاولة أمين الخولى هى أولى محاولات التجديد فى البلاغة العربية وأعمقها وأكثرها إخلاصاً للعقل العربى ، وقد قامت على أساس من نقد البلاغة القديمة طموحاً إلى إقامة نظرية بلاغية جديدة ، وأولى مراحل نقد البلاغة القديمة ظهر فى تقسيمه هذه البلاغة إلى مدرستين هما : المدرسة العلمية والمدرسة الفنية ، وبدا اتجاهه واضحاً فى نقد المدرسة العلمية واتصال البلاغة بالفلسفة والمنطق فى كتابيه : مناهج تجديد ، وفن القول ، وقد بدأ أيضاً فى محاولة إرساء دعائم الذوق سبيلاً وحيداً لتطوير الدرس البلاغى وبذلك أسس للتجديد بقوله : " يجب أن نؤيد المدرسة الفنية ونهجر المدرسة العلمية فى دراسة البلاغة ، ونمضى فى كل ذلك التجديد بقدم ثابتة

---

(٣٩) د. سعد مصلوح قراءة جديدة لتراثنا النقدى ، المجلد الثانى ، صـ ٨٣٦

(٤٠) أمين الخولى : مناهج تجديد ، ص ١٦٧

(٤١) أحمد مصطفى المراغى : تاريخ البلاغة العربية ، ص ٢٨

لا تخشى خطراً ما ، لأنه تجديد تاريخي وطيد الدعائم " [٤٢] ، ويقول فـــي موضع آخر : " إنما نؤثر المنهج الأدبي الفني كاملاً غير منقوص ، واضحـاً غير مشتبه ، منسقاً غير مضطرب ، أدبياً لا شيَةَ فيه من علم ولا فلسـفة ولا كلام ، ولا غبار عليه مما عدا الوجدانيات المحتكمة ، والذوق المسيطر فنيـاً بارئاً من تداخل المناهج واختلاطها " [٤٣] .

ذلك هو جوهر صيغة الخولي التي رأى فيها تجديداً للبلاغة العربية ، بيد أن ملاحظته ضرورة تخطي الجملة إلى الفقرة والنص في الدرس البلاغي تبقى من أهم الرؤى التي نفذ إليها في مقترحه .

وعلى حين وقف العقل العربي في العصر الحديث دائراً فـــي فلـك التركيز على هذه الجوانب السلبية في التراث البلاغي ، كان العقل الغربـــي يسير بخطوات أكثر اتساعاً وجوهرية في تطوير الرؤية البلاغية الغربية ، أو طرح ما لا يتلاءم مع العقل الغربي الحديث ، فانصرفوا إلى أبحاث واســعة في دراسة الاستعارة [٤٤] ، كما التفتوا إلى بعد جوهري آخر يتمثل في فصل العــلاقة بين الدرس البلاغي وتأسيسه للغاية التحسينية التزيينيـــة المخادعـــة للقول .

---

[٤٢] أمين الخولي : مناهج تجديد ، ص ١٧٥

[٤٣] أمين الخولي : فن القول ص ١٤٢

[٤٤] راجع في هذا د. أحمد صبرة : التفكير الاستعاري في الدراسات الغربية القاهرة ١٩٩٨م

فلقد كان ذلك من المآخذ التى وجهت إلى البلاغــة القديمة تســـتوفى ذلك البلاغة العربية واليونانية ، وربما كانت هـــذه الغايـــة التحســـينية مـــن الخصائص السيئة التى اضطرت البلاغة إلى حملها ، والتى جعلتها تســـتخدم مرادفاً للكتابة الرديئة ، على حد قول ت . س . إليوت T.S.Eliot (٤٥) ، وقد كانت هذه الغاية نفسها ــ بوصفها مأخذاً ــ دافعاً إلى رؤية جديـــدة للبلاغـــة تجعلها تتجاوز الغاية التحسينية " ومحاولة إيجاد بلاغة فى الجوهر أيضـــاً " (٤٦) ، ويحاول إليوت فى نهاية حديثه عن البلاغة والمســـرحية الشـــعرية أن يفصل الكلام الجيد فى جوهره عن الاتصال بالبلاغة ، باعتبار البلاغة محسناً أو تضخيماً فى الكلام لا يقصد به إحداث أثر بعينـــه ، ولكـــن يتعلـــق فقـــط بتضخيم وقع الكلام على النفس بوجه عام ، ثم يشير إلى أنه لا ينبغى السماح للمصطلح بأن يشمل كل الكتابة الرديئة .

وقد أشار أمبرتو إكو إلى البعد التحسينى المخـــادع فـــى الظواهـــر البلاغية فى كتابه (A Theory Of Semiotics.) منبهاً إلى أثر استخدام الظواهـــر البلاغية فى خداع العامة .(٤٧)

ولم يخل التناول العربى للدرس البلاغى من الإشارة إلى تلك الغايـــة التحسينية ، منها إشارات عباس العقاد التى تناولـــها بالشـــرح والتحليـــل د. مصطفى ناصف فى كتابه : " اللغة والبلاغة والميلاد الجديد " ، كما عالجـــها

---

(٤٥) T. S.Eliot : Rhetoric & Poetic Drama, In : Selected Essys , P. 38

(٤٦) المرجع السابق والصحيفة

(٤٧) Eco. U : A Theory Of Semiotics. P.283

القضية نفسها فى بحثه " بين بلاغتين " المنشور فى كتاب : قـــراءة جديــدة لتراثنا النقدى " ، كما ارتبطت الغاية التحسينية بنقد بعض المفاهيم المؤسِّســـة لعلوم البلاغة وبخاصة علم البديع (٤٨) .

ويبقى الحرى بالوقوف هنا هو دلالة ما قدمناه علـــى إعاقـــة العقـــل العربى ، فإن محاولات الخولى ومقترحاته ، وأوجه النقد التى وجهها للـــدرس البلاغى لم تجد من ينطلق منها ويستثمرهـــا على مدى عشـــرات الســـنين ، فكيف بصاحب المرايا الذى يذهب ــ فى غض الطرف عن هذه المحـــاولات الجادة ــ إلى أنه يستأنف البحث فى النظرية البلاغية العربية .

ويبقى التساؤل عن سبب سيطرة هذه الظاهرة على العقل العربى فـــى العصر الحديث ؟ نعم إنها ظاهرة ، لا نقول جديرة بالتأمل ، ولكنها ظـــاهرة مَرَضية تستحق العلاج .

---

(٤٨) يراجع فى ذلك ــ على سبيل المثال ــ د.عبد الواحد علام : مواقف وقضايا فى التراث البلاغى ، وقد تناول كاتب هذه الصفحات هذا البعد التحسينى ولاقته بقضية التكلف فى الفصل الثالث من كتاب : " قضية الطبع والتكلف فى التراث النقدى والبلاغى ، قراءة جديدة .

خَلَلُ الْمُنطَلَقات

(١)

إن تحديد المنطلق لا يقل أهمية عن تحديد الهدف وعن الإجـــــراءات التى يسير فيها المرء لتحقيق هذا الهدف ؛ لأن نقطة الانطلاق يتعلق بها نجاح المرء فى إنجاز مهمته أو إخفاقه ، كما يتعلق بها رسوخ القدم على الطريـــق الصحيح من عدمه ، كما يتعلق بها ــ فى الوقت ذاته ــ مقدار ما يبذل المرء من جهد فى سبيل تحقيق هذا الهدف ، فإذا تــم تحديــد الــهدف والطريــق والمنطلق توفر الجهد ، وتضــاعف ما يمكن أن يُنجزه المرء ، ومـــن هنـــا نقول : إن الجهد المبذول فى تحديد المنطلق ليس جهداً ضائعاً ، وإن الوقـــت المستهلَك فى تحديده أيضاً ليس وقتاً ضائعاً .

على الرغم مما فى الانطلاق من الإيمان الواثق بالتراث من وجاهـــة تُمَكِّن للدعوة الذيوع والانتشار بما تحقق من أسباب القبول ، فإن هذه الدعــوة قد لا تخلو من نغمة دعائية تحقق استجابة لدى جمهور عريض من المثقفيـــن الذين يندفعون إلى تقديس التراث بدافع عاطفى ، ومن ثم فإن هـــذه الدعــوة تنطوى على مصادرة لا تنفصل عن أسباب الإعاقة ؛ لأنها قد تـــؤدى إلـــى قراءة التراث قراءة تبريرية ، وهذا النوع من القراءة بلا شـــك لـــه خطـــره العظيم على بنية العقول التى يقع فيها هذا النشاط .

وهذا ما حدث من صاحب المرايا ، فقد بدت نـــبرة المصـــادرة فـــى التمهيد لكتاب المرايا المقعرة إذ يقول : " ... كنت أشعر طوال الوقـــت بـــأن

الإجابة موجودة فى التراث البلاغى العربى ، وأن البديل هناك ، ولا بد من العثور عليه " (١) ، الأمر الذى يضع بين يدى القارئ المدقق نمطاً من أنماط القراءة التبريرية ، التى غالباً ما تعمد إلى استكراه النصوص لخلق نظرية ، أو استكراه النفس لتقبع داخل قوقعة هذه النصوص ، ولا يخفى ما ينطوى عليه هذا النشاط من إعاقة .

بل إنه راح يحمل هذه المصادرة على أفضل الحداثيين — على حد تعبيره — الذين " حاولوا تحقيق موقف وسط ، لا من قبيل الرغبة فى إمساك العصا من وسطها ، أو الرقص عند منتصف السلم ، بل من قبيل إيمان صادق بقيمة التراث " (٢) .

إن موضوعية الرؤية تقتضى الحياد التام فى قراءة التراث ، وهذه القراءة الحيادية بدورها تقتضى الانطلاق إلى قراءة التراث باستعداد تام للقبول أو الرفض ، بل استعداد تام للقطيعة ، إن لم نجد فى هذا التراث ما يسعفنا فى آننا للتمسك به ، ولعل هذا هو السبيل الوحيد إلى القراءة المحايدة البناءة النائية بنفسها عن اتخاذ المواقف التبريرية المضللة .

وقد يكون فى هذا الحياد الغائب الضابطُ الموضوعىُ الذى يؤدى بنا إلى القراءة الصحيحة البناءة الخلاقة ، ونقصد بهذا الغائب البداية بتحديد الهدف من القراءة ، أو قل تحديد الهدف من أى عمل نشرع فى القيام به ، فإن تحديد الهدف — بلا أدنى شك — يوفر الجهد والوقت ، ويقطع عقم الحلقة المفرغة التى يدور فيها العقل العربى على مر سنين طويلة مضت وتمضى ،

---

(١) المرايا المقعرة ص ١٠

(٢) المرجع السابق ص ١٧٧

ومن ثم ينبغى أن نأخذ أنفسنا ، لا نقول بتحديد الهدف فقط ، بل نقول أيضـــاً بعملية تمثُّلٍ للهدف ، حتى تتضبط خطانا على طريق تحديد هذا الهدف ، وإن فوضى الخطوات والجهود المبذولة لتدفعنا إلى التساؤل أولاً : هل الهدف هـو الانتصار للتراث ؟

ولا أظن الإجابة بالإيجاب ستكون ذات جدوى للتراث أو للحـاضر أو للعقل العربى فى وجودَيه الماضى والحاضر .

إذا كان هذا هو الهدف فإنه لن يحقق إلا خطوة جديدة فـــى طريـــق الانحدار بالعقل العربى ، هى خطوة التناحر غير المبرر والتصفيـــة الذاتيـــة للجهد والوقت فى قضايا عقيمة .

وحسبنا فى ذلك أن نتأمل المراحل التى مر بها هذا الـــتراث لنقــف بوعى وحياد وموضوعية على الخطوة التى نحن بصددها ، لقد كان اهتمـــام العقل العربى شعرياً قبل الإسلام يرتبط بانفعال الغضب والعصبية ، يدلنا على هذا أن إنجاز هذا العقل كان أيضاً شعرياً ، ثم أيقظ الإســـلام فيـــه مثـــيرات التفكير والتأمل والتدبر فاستيقظ ، ثم كان دخول حضارات أخرى فى البيئـــة العربية مؤذناً بتفاعل بين هذه الحضارات التى تلونت بلون الثقافـــة والفكـــر العربيين ، ثم دخل طوراً آخر فى الحركة العقلية التى قامت فـــى المجتمـــع الإسلامى حول بعض قضايا دينية وفكرية بين المتكلمين ، وقد صاحبها نشاط فى الترجمة ، ونشاط فى اللغة والنحو والنقد والبلاغة حتـــى نهايـــة القـــرن الخامس الهجرى ، ولم يبق لهذه الحركة سوى ظل فى القرون التالية تفـاوتت قوة وضعفاً كلما امتد بها الزمن ، حتى ركنت إلى عقم وجمود حيث صـــــار الموقف من هذا التراث متمثلاً فى الشرح والتلخيص ، والشرح على الشـــرح

وتلخيص التلخيص ، ثم كانت الدعوة للإحياء والبعث بما انطوت عليه من محاولات للانعتاق من أسر دواعى العقم والجمود ، ثم تفسخت الخطى على طريق المعارك الدائرة بين المؤيد والمعارض من أنصار القديم وأنصار الحديث ، ثم راح كل فريق يحاول أن يستمد قيمته بأن يجعل للمعركة قيمة فى حركة غريبة من الغياب العقلى العلمى الموضوعى الحيادى ، ولعله ما يزال حاضراً فى أذهاننا ذلك الصراع بين المجددين والاتباعيين .

وكأنى بمثل هذه المعارك الدائرة الآن بين المتعصبين للتراث أو المتعصبين عليه ــ بعد ذلك ــ أمام مشهد من المشاهد المزرية للمعارك الحربية التى كان العرب يتقاتلون فيها ويتفانون السنين من أجل حصان سبق حصاناً !!!

إنه نوع من أنواع الفناء التى لم يحاول العربى فيها قديماً الوقوف وقفة تأمل مع النفس ، وقفة إعادة حساب ، واستعادة توازن ، وقفة يحدد بها الهدف ويرى مقدار ما يبذل فى سبيل تحقيق هذا الهدف إن كان يساوى ما تزهق فى سبيله من أرواح أو لا يساوى .

فى ظل النظرة الموضوعية والموقف الحيادى تسقط الثنائية التى لا تزيد العقل العربى إلا دوراناً فى فلك عقيم : (شرعية الحداثة ــ شرعية التراث) ، فالأمر لا يمكن أن يكون بهذا الفصل الذى يجعل قراءة التراث بهدف تأسيس شرعية الحداثة أمراً مرفوضاً ، ويجعل قراءة التراث بهدف تأسيس شرعية التراث نفسه أمراً مقبولاً ، أو قراءة الحداثة بهدف تأسيس شرعية التراث ؛ لأن هذه التوجهات تنطلق من ذاتية ممقوتة ، يا أكثر ما أعاقت العقل العربى وجنت عليه .

إن القراءة الناقضة تنطلق من تأسيسها لذاتها ، إنــــها انســـلاخ عـــن التراث بهدف قراءته وعن الحداثة بعقل أسهمت روافد التراث والحداثة معـــاً فى تكوينه ، انسلاخ يضمن ــ إلى أبعد حد ممكـــن ــ موضوعيـــة القـــراءة وحيادها ، ولا ينفى القطيعة ــ حتى لو كانت مطلقة ــ عن هذا أو ذاك .

إن المقولات التراثية لها ــ فى ذاتها ــ ما يؤســـس شـــرعيتها فـــى ظروفها التاريخية وملابساتها التى تكونت فيها ، وكذلك فإن المقولات الحداثية أيضاً لها ــ فى ذاتها ــ ما يؤسس شرعيتها فى ظروفها التاريخية وملابساتها التى تكونت فيها ، وإن اللعب فى منطقة المنطلقات ينطوى علــــى مغالطـــة جوهرية ، شأن تلك المغالطة التى وقع فيها صاحب المرايا إذ يقول :

" إن خطورة ما يشير إليه جابر عصفور فى قراءته لأبى ديب أننـــا أمام ناقد يقرأ التراث العربى ، ممثلاً فى عبد القاهر ، ليثبت صحة اتجاهـــه البنيوى ، وليس العكس ، وشتان بين القول إن التراث النقدى يثبـــت صحـــة المشروع البنيوى ، أو أى مشروع نقدى حداثى آخر ، والقول إن النقد العربى قدم مدرسة نقدية ، قد لا تكون متكاملة أو مبلورة بما فيـــه الكفايـــة ، تؤكـــد شرعية التراث العربى وسبقه ، القول الأول يعطى شرعية للمشروع النقـــدى الحداثى ، ومن ثم يعزز التمسك به أما القول الثانى فيعطى شرعية للماضى ، ويؤكد ضرورة إحيائه والتمسك به وتطويره " [٣] .

ولكنْ : لِمَ لا يُفهم من كلام كمال أبى ديب أنه يؤكد شرعية القديـــم ــــ متمثلاً فى عبد القاهر الجرجانى ؟

---

[٣] المرجع السابق ص ١٧٦

وإن كان أبو ديب يقصد ــ يقيناً فيما يذهب إليه د. حمـــودة ــ فـــى قراءته لعبد القاهر إلى صحة اتجاهه البنيوى ، ألا يؤكد هـــذا ــ ضمنيـــاً ــ على شرعية القديم متمثلاً فى عبد القاهر .

ولنا أن نتساءل فى تأنٍ أيهما أكثر شرعية وتجذُّراً فى عقولنا : الشىء الذى نستمد شرعيته من شىء آخر أم الشى الذى نستمد منه الشرعية ؟

ليتنا نُمهل أنفسنا للتدبر ونسلمها للتأمل حتى لا نستهلك الجهد والوقت فى الدوران فى فلك عقيم .

إذا كان كمال أبو ديب يستمد شرعية اتجاهه البنيوى من عبد القـــاهر الجرجانى ، فإن ذلك يعنى يقيناً أن عبد القاهر أرسخ فى شرعيته ــ بلا شـك ــ من اتجاه أبى ديب البنيوى ، أراد هذا كمال أبو ديب أو لم يرده ، اعـترف به أو لم يعترف ، ومن ثم لزم أن ينمحى الخوف الدافع إلى محاولـــة إثبـــات شرعية التراث فى مواجهة من يقرؤه لإثبات شرعية الحداثة ؛ لأن من يستمد منه شرعية الحداثة يشهد على تجذُّر شــــرعيته ورســـوخها ... لا شـــك ان المشكلة أعم وأعمق وأعنف وقعاً .

(٢)

إن الانطلاق من المقولات الناتجة عن النشـــاط العقلـــى الـــتراثى أو الحداثى بهدف التأسيس لشرعية هذا أو ذاك ينطوى على عجز عن الوعـــــى بالذات ، ومن ثم عجز عن إنتاج النظرية المعرفية الخاصة بها ، وإنما نقــول بالعجز هنا لأن القائم بهذا النشاط إنما يقف على حافة النشاط العقلى المعرفــى ولا يقف بداخله ، وإن الجهد المبذول هنا أشبه بالجهد الذى يقوم ببذله لاعــب الكرة الذى يلعب خارج المكان أو الزمان المخصصين للعب ، إنه جهد ولكنه مهما يكون مضنياً فإنه لا يمكن أن يحقق هدفاً ، إنه نشاط ولكنه أشبه بالجرى فى المكان يؤكد حاجتنا إلى التفكير للأمام .

إن الذى يرضى لنفسه أن ينحصر فى هذا النشاط يقف خارج الحـدود ليُنصِّب نفسه حكماً بين التراث و الحداثة ، إنها حلقة وسيطة غير منتجة ، قد تكون لها قيمتها بوصفها مقدمات لخطوات أخرى منتجة ، ولكنها فــــى كـــل الحالات ينبغى أن تجد من يتصدى لها لتقف ، بهدف توجيه العقل العربى إلى نشاط أكثر فاعلية وإيجابية ، ينعتق من المكان ليخطو إلى الأمام .

(٣)

أخذ صاحب المرايا على بعض الحداثيين الانطلاق من التراث لإثبات شرعية الحاضر الحداثى ، وأعلن الانطلاق من التراث لإثبات شرعية التراث ، والواقع أنه ينطلق من الحداثة لإثبات شرعية التراث ، لقد راح د. حمـودة يأخذ على د. عبد الله الغذامى اندفاعه بحماس لتأسيس شرعية الماضى إلـــى إنطاق بعض النصوص التراثية بما لا تنطق به ، وتحميلها مـــا لا تطيــق ، ويضرب لهذا مثلاً بتعليق الغذامى على نص من كتاب الشفاء لابــن ســينا ، يقول فيه : " إن اللفظ لا يدل البتة ، ولولا ذلك لكان لكل لفظ حق من المعنــى لا يجاوزه ، بل إنما يدل بإرادة اللافظ ، فكما أن اللافظ يُطلقه دالاً على معنى ، كالعين على الدينار ، فيكون ذلك دلالته ، كذلك إذا أخلاه ، فى إطلاقه عــن الدلالة بقى غير دال " ، وبينما راح صاحب المرايا يرفض موقف الغذامـــى ومنطلقاته نراه يعلق على النص نفسه بقوله : " إن ما يقوله ابن ســـينا فــى هاتين الجملتين يعتبر أحد أركان نظرية لغوية عربية ، لا تختلف كثيراً عــن أركان النظرية اللغوية التى قدمها فرديناند دى سوسير ، والتـــى هلــل لــها الحداثيون فى كل مكان باعتبارها الفتح الجديد للدراسات البنيوية اللغوية ثـــم البنيوية النقدية ، هنا تكمن شرعية العودة إلى نص ابن سينا " [٤] .

---

[٤] المرجع السابق ص ١٨٢ ، ١٨٣

وبذلك ـــ وببساطة شديدة ـــ يتأكد لنا انطلاق د. حمودة من الحداثـــة لإثبات شرعية التراث بتأكيده الأخير : " **هنا تكمن شرعية العودة إلى نـــص ابن سينا** " ، ولنا أن نتساءل إلى أى اتجاه من الاتجاهات الثلاثة التى حددهـــا ينتمى موقفه هذا ؟ فقد قسم المواقف من التراث إلى ثلاثة اتجاهات : اتجـــاه ينادى بتحقيق القطيعة المعرفية ، واتجاه يرفض القطيعـــة ، واتجـــاه ثـــالث وسطى يرى أن علاقتنا بالتراث علاقة اتصال وانفصال فى الوقت نفســه (٥) ، وبمعزل عن التقسيم الذى قسمه فإن موقفه هذا يمثل انطلاقاً مـــن الحداثـــة لإثبات شرعية التراث ، ولا معنى لأن يكون هذا هو المنطلق والـــهدف ؛ لأن تحقيق الوسطية لا يعنى بحال من الأحوال تحديد هويتنا الثقافية .

إنه موقف دفاعى بالدرجة الأولى لا ينفى سلطة الآخر بـــل يؤكدهـــا ويدعم تسييدها ، وأى تسييد للعقل الغربى أكثر من الذى نلتمس فيه شـــرعية العودة إلى نص ابن سينا لأنه تواءم مع مقولات دى سوســـير ، وأى تســـييد للعقـــل الغربى من الذى نلتمس فيه شرعية عبد القـــاهر فـــى مقـــولات دى سوسير ، ذلك المبدأ الذى يؤكده د. حمودة بتساؤلاته : " هل يختلف ما قدمـــه العقل العربى فى الدراسات البلاغية عبر خمسة قرون عـــن ذلـــك المفـــهوم للنظرية خاصة إذا أخذنا فى الاعتبار أن النظرية التى نتحدث عنها هنا تقبـــل التغيير والتحوير والإضافة والنقض ، دون أن يغير ذلك من قيمتها كنظرية ؟ وبدقة وتحديد أكثر : ألا ينطبق كل ذلك على محاضرات فرديناند دى سوسير فى اللغويات العامة فى بدايات القرن العشرين والتى جمعت بعد ذلك فى كتاب نُشر بعد موته هو دروس فى علم اللغة عـــام ١٩١٦ م ، وهـــو

---

(٥) المرجع السابق ص ١٨١

الكتاب الذى لا يختلف عليه مفكران باعتباره الكتاب العمدة الذى بدأ النظرية اللغوية الحديثة ؟ " [٦]

إنه — على حد تعبير د. جابر عصفور — " وضع مؤس يذكر المرء بأولئك الذين لم يقدروا روائياً مثل نجيب محفوظ إلا بعد أن قدر على أيدى الفرنجة " وأرجو أن يعيد صاحب المرايا قراءة نص د. عصفور — الذى ذكره ص ٢١٥ ، و٢١٦ — دون أن يراه من خلال مرايا مقعرة :

" **وليس ذلك كله من قبيل تصاعد التقليد ، أو مراوغته فحسب ، فى غيبة فحص دقيق ودرس مقارن لمقولات التشابه والتضاد بين دى سوسير (ومن بعده النقد الفرنسى البنيوى) وعبد القاهر ، وإنما هو — فضلاً عن ذلك — وضع مؤس يذكر المرء بأولئك الذين لم يقدروا روائياً مثل نجيب محفوظ إلا بعد أن قُدِّر على أيدى الفرنجة فى الغرب ، وبعد أن حصل على أكبر جوائزهم . وهو وضع يكشف فى — النهاية — عن عرض من أعراض (تعويض) نفسى ، تتحول معه علاقة الناقد العربى المعاصر بتراثه النقدى إلى علاقة تضاد عاطفى ، هو انعكاس لعلاقة بالنقد الأوربى الذى لا يملك هذا الناقد سوى أن يتبعه ، ولا يستطيع — ما لم يطور أدوات إنتاج معرفته النقدية والتراثية — سوى أن يحلم — عاجزاً — بالاستقلال عنه** " . [٦]

والغريب الغريب أن كتاب المرايا المقعرة يعكس حالة الحلم العاجز هذه ، كما يكشف عن حالة التعويض النفسى .

---

[٦] المرجع السابق ص ١٨٩

[٦] د. جابر عصفور : قراءة التراث النقدى ص ١٠٩ ، ١١٠

إن الانطلاق من الحداثة لتأسيس شرعية التراث ينطوى على مغالطة كبيرة ، فإنه تسييد من حيث لا ندرى لشرعية الآخر ، إذ يجعل هذا الآخر هو الذى يُطمئننا على فكرنا وعلى إنجازات العقل العربى ، فلولا أن كلمات (سوسير) وافقت مقولات عبد القاهر وابن سينا لما كانت لهما تلك القيمة .

لا معنى لأن يكون هذا هو المنطلق والهدف ، فإن تحقيق الوسطية التى يُقيم لها د. حمودة هذا الترويج لا يعنى بحال من الأحوال تحديد هويتنا الثقافية ، إنه موقف دفاعى بالدرجة الأولى لا ينفى سلطة الآخر بل يؤكدها ، ولن أستشهد إلا بما استشهد به صاحب المرايا من قول عزيز الماضى عن حركة النقد العربى المعاصر : " ... ولم تتواصل مع التراث النقدى القديم ! فعلى الرغم من استشهاد النقاد الجدد بشذرات من النقد القديم ، وذكر اسم الجرجانى كثيراً ، فإن المرء يشعر أن هذه المحاولة تهدف إلى تسويغ آرائهم وأفكارهم أكثر من التواصل والتفاعل الجدى مع التراث النقدى أو تطوير آراء الجرجانى ، بدليل أنهم لم يلتفتوا إلى تلك الشذرات إلا بعد احتكاكهم بآراء النقاد الغربيين ، وهى مسألة تثير قضية مهمة ، وهى : كيفية التعامل مع التراث النقدى " (٧) .

إن عدم الالتفات إلى تلك الشذرات إلا بعد الاحتكاك بآراء النقاد الغربيين هو عينه ما نعنيه بفساد المنطلقات ، وهو عينه ما يفعله د. حمودة فى مراياه ، وبذلك تحمل الكلمات التى استشهد بها د. حمودة الرد عليه ، بيد أنه تعجل ، كما تحمل الرد على كلمات د. حامد أبو أحمد التى أخذ د. حمودة

---

(٧) شكرى عزيز الماضى : من إشكاليات النقد العربى الجديد ، بيروت ١٩٩٧م ص ٢١

يرددها " فى تكرار يكاد يصل إلى حد الهوس " : " إذا كان العرب القدامى قد أبدعوا قيماً فى مجال اتساق الخطاب وانسجام النص فلماذا لا نواصل مسيرتهم انطلاقاً من مفاهيم ومصطلحات عربية خالصة ، مستعينين فى الوقت نفسه بالاكتشافات القادمة من الغرب بدلاً من أن نُحدث نوعاً من الخلط بين المفاهيم الأصيلة والمفاهيم المستوردة " (٨) ، فإننا هنا أيضاً ننطلق من المفاهيم الغربية لإثبات شرعية التراث .

إن الحكم القاسى الذى نُطلقه : خلل المنطلقات ينبغى أن يحملنا على لحظة مصارحة مع الذات ، إن الشواهد السابقة ، وغيرها كثير لَتدلُّ دلالة واضحة على حقيقة لا مناص من الاعتراف بها خلاصتها أننا لا نستطيع فكاكاً من سلطة الآخر الغربى .

إنه هو الذى يلفتنا إلى ما ينبغى أن نلتفت إليه من تراثنا ، إنه هو الذى يُطمئننا على فكرنا ، إنه هو الذى يعيد وعينا بتراثنا ، كما يشكل وعينا بحاضرنا ، وما لم تكن الوقفة ، فإنه هو الذى سيشكل حاضرنا ... فهل غدا هو النور الذى نرى به ما يُرينا من هذا التراث ، ليظل ما لا يُرينا فى منطقة الظلمة يعلوه غبار السنين ؟

يتأكد هذا المنحى الخطر بممارسات صاحب المرايا التى راح فيها يحدد التساؤل الذى يمثل بالنسبة له المنطلق فيقول : " ونعود إلى تساؤلنا الأساسى عن الإنجاز الذى حققه سوسير والذى لم يسبقه إليه أى من البلاغيين العرب ! " (٩) ، ثم يقوم بتحديد هذا الهدف تحديداً بقوله : " وسوف نقوم فى

(٨) د. حامد أبو أحمد : نقد الحداثة الرياض ١٩٩٤ م ص ٧٣ ، ٧٤

(٩) المرايا المقعرة ص ٢٠٠

الصفحات القليلة القادمة باستعراض أركان نظرية اللغة السوسيرية فى إيجــاز وتبسيط ، من باب التذكرة من ناحية ، وبهدف استخدام ذلـــك الاســـتعراض المبسط كخلفية ثابتة ودائمة فى أثناء مناقشتنا المفصلة لأركان النظرية اللغوية العربية " (١٠) ، وكأنه لا يكتفى بمنحاه فى انطلاقه من الآخر الغربى الحداثى إلى قراءة التراث ، ولكنه يحمل القارئ أيضاً على اليقظة لـــهذا المنطلـــق ، وليس بخفى ما فى المنطلق من تأكيد للتبعية الثقافية .

---

(١٠) المرجع السابق ص ٢٠١

(٤)

إن صاحب المرايا ـــ فى محاولته إثبات شرعية التراث ـــ أعلـــن أن منطلقه هو التراث ذاته ، فهل نقول بصواب الانطلاق من الـــتراث لإثبـــات شرعية التراث ، حتى لو لم يكن المنطلق من الثقافة والفكر الغربيين ؟

إن الأمر أكبر من أن نفتش فى أعماق التراث لنستخرج منه ما يتواءم مع النظريات الغربية ؛ أو لإثبات وجود نظرية عربية انطلاقاً من التراث ذاته أو من الحداثة ؛ لأننا بذلك لا نكون قد حققنا هويتنا ، وإن الأمر أكـــبر مـــن إثبات وجود نظرية عربية ، فالهدف المتحقق من البحث وراء وجود نظريـــة عربية هو إثبات قدرة العقل العربى القديم على التفكير ، وهو هدف مخادع ، أو قل هو هدف غير جدير بهذا الجدل ، فإن واقع المشكلة هو إثبات قدرتنـــا نحن على التفكير الآن ، وليس هذا بإقامة الدليل وحشد الشواهد على وجـــود نظرية فى التراث العربى ولكن **بأن نفكر** .

ومن ثم فإن المنطلق الصحيح ينبغى أن يكون بمساءلة هذا الـــتراث ، أن ينشأ السؤال بداخلنا نحن ، عندها نكون قادرين على التواصل ومواصلـــة الخطى ، عندها يختفى خطر الذوبان فى فكر الآخر وثقافته ، عندها نكون قد وطَّنَّا أنفسنا بقدر ينفى عنا التبعية الخانقة والمَعيَّةَ القاتلة .

إن المنطلق الصحيح هو : **أن يتخلق السؤال داخل عقولنا .**

إن هذا الهدف إنما يتحقق بإجراء النقد تمهيداً لإجراء النقض ، وليس الاستغراق الكامل فى النقد ؛ لأن الاستغراق التام فى النقد إنما هو ضرب من الاستهلاك الذاتى لما فيه من ضياع للجهد والوقت ، إن إثبات قدرتنا على التفكير لن يكون إلا إذا كنا قادرين على نقض هذا التراث ، منطلقين منه ومن معطيات المعرفة الراهنة جميعها .

وإذا جاز لنا أن نأخذ فى اعتبارنا التجربة الأوربية للنهضة ، فإن ذلك ينبغى ألا يأخذ منحى استهلاكى للمعرفة الأوربية ، فالفرق كبير بين أن نأخذ معرفة جاهزة متمثلة فى فكرة أو نظرية ، أو مجموعة من الأفكار والنظريات ، وأن نأخذ فى اعتبارنا طريقة إنماء العقل وصولاً إلى منهجية فى التفكير ، عندها سيكون إنتاج النظريات المعرفية أمراً تلقائياً ، فهل الهدف ينحصر فى محاولة إثبات أن العرب كانوا أصحاب نظرية أو نظريات معرفية ، أم الهدف هو إثبات أن العرب قادرون الآن على إبداع النظريات المعرفية ، وأن هذا إنما يكون بإبداع النظريات وليس بإقامة الحجج ؟ !! ... لا شك أن بين الأمرين بوناً بعيداً .

إن الركود فى منعطف محاولة إثبات أن العرب كان لديهم القدرة على إنتاج نظرية معرفية لهو نوع من التخدير للعقل العربى ، على الرغم مما ينطوى عليه هذا المنحى من قيمة عصبية قد نرانا مدفوعين إليها بدوافع عاطفية شتى ، هو تخدير أشبه بتخدير الاسترخاء على فراش مجد الماضى الوثير ، يذهب بعقولنا ويستهلكها فى نشاط عقلى عقيم – إذا اتخذناه غاية الغايات – لننسى مسئوليتنا تجاه حاضرنا الذى نحياه ، ونحسب أن اجترارنا من الماضى ، ومحاولاتنا المتكررة فى إثبات شرعيته ضرب من الإخلاص .

إن ما رآه د. حمودة منطقياً فى تحليله لتبرير الحداثيين ــ من وجهة نظره ــ لا نرى فيه شيئاً من المنطق المستقيم إذا تأملنا وأمهلنا أنفسنا للاستيعاب والتدبر ، يقول :

" إن التبرير المنطقى لدى الحداثيين العرب ، سواء أعلنوا ذلك أو لم يعلنوه ، أنهم تحولوا إلى فكر الحداثة الغربية بسبب غيبة نظرية علمية متكاملة للنقد العربى ، وفى سعيهم لتحديث العقل العربى لجأوا إلى عملية النقد الحداثى ... تتحدد مهمة مؤلف المرايا المقعرة فى محاولة إثبات وجود بديل عربى " (١١)

والسبب فى هذا أن هذه العبارة تنطوى على عدة مغالطات ، فلو ذهب هؤلاء الحداثيون إلى هذا التبرير لكان فى هذا التبرير ــ أولاً ــ دليل واضح جلى على عجزهم ، فهم ــ لو صح هذا الزعم ــ ينتظرون نظرية (جاهزة) تأتيهم من التراث أو من الآخر ، أى أنهم ــ عندئذ ــ ناطقون بعجزهم عن استنباط نظرية من تراثهم ، أو عاجزون عن تطوير مقولات تراثهم فى منظومة نظرية ، أو عاجزون عن ابتكار نظرية فى حالة عجز التراث عن تقديم النظرية وعجزه عن تقديم المقولات التى تصلح لأنْ تُطور فى منظومة نظرية .

ولو صح هذا التبرير لكان ــ ثانياً ــ جهد د. حمودة الذى حدد فيه مهمته بقوله " **تتحدد مهمة مؤلف المرايا المقعرة فى محاولة إثبات وجود بديل عربى** " مجرد تلبية لرغبة هؤلاء المتواكلين المتكاسلين العاجزين عن

---

(١١) المرجع السابق ص ١٨٥ ، ١٨٦

الفعل أو التفاعل ، وأى قيمة تذكر لهذه المهمة ؟ إنها قيمـــة نفســية ترتبــط بعاطفة ولا ترتبط ارتباطا يذكر بغاية معرفية حقيقية فعالة .

إن الإشكال أعم وأعمق من هذا بكثير ، فلو كان دافع هـــؤلاء هـــو إنكار الجهد العربى القديم بهدف تأسيس شرعية القطيعة المعرفية مع الـــتراث ، فإن سؤال الجيل كاملا إنما ينبغى أن يكون عن سبب هذه الظاهرة المخيفة ، ولو كان الدافع هو عدم وجود نظرية عربية ، فإن سؤال الجيل كـــاملا إنمـــا ينبغى أن يكون عن سبب هذا العجز الصارخ والخمول التام ؛ ليكون فى بحث الجيل عن تفسير لهذا السبب أو ذاك تفعيل حقيقى للعقل العربى ، أى منطلـــق صحيح للبحث يكون العقل العربى مادته وغايته فى آن واحد .

ولعلى لا أكون مبالغا إذا زعمت أن انطلاق صاحب المرايا ــ عمليــا ــ من معطيات الفكر الغربى لإثبات شرعية التراث أشد خطورة فـــى أثـــره السلبى على العقل العربى من الدعوة إلى القطيعة المعرفيـــة مـــع الـــتراث ، ومكمن الخطورة فى أن الدعوتين تؤسسان للتبعية الثقافية ، بيـــد أن دعـــوة القطيعة تؤسس للقطيعة ومحو الهوية وهى فى موقف المواجهة الذى أفـــرز ويفرز اتجاه المقاومة ، أما دعوة د. حمودة فهى دعوة ظاهرها ــ نظريـــا ــ الاستقلال وإثبات الهوية ونفى التبعية ، أما باطنها ــ عمليا ــ فإن هذه الهوية إنما تتم بمواءمتها للآخر الغربى ، فتجعل من الآخر قوام شـــرعيتها ، إنـــها تتسلل إلى العقول من منطلق مقبول (نحو نظرية نقدية عربية) ، ولكنـــها لا تلبث أن تلوى الأعناق وتكبل العقول لتطيعها عنوة ، وتسير فى ركابها .

إن دعوة القطيعة المعرفية مع التراث تسعى ــ إجرائيـــا ــ إلـــى أن تلوى أعناقنا وتكبل عقولنا فى مواجهة مباشرة ، أما منطلق المواءمـــة فإنـــه

يتسلل فى دمائنا ، وعبر عقولنا ، ليحكم تسييد الآخر فى نفوسنا من الداخل ، وقد تذهلنا الغفلة عن التيقظ لخطورة المنطلق فينخرنا من الداخل ، فالخطير الخطير أن نقف مبهورين مصفقين لأن مقولة ابن طباطبا توافقت مع مقولة سوسير [١٢] ، على حين أن المناسب أن نقف محزونين لأننا لم نتنبه إلى مقولة ابن طباطبا إلا بعد أن قال سوسير مثلها ، **فهل ننتظر النظرية الغربية الحديثة لننطلق منها إلى ترسيخ ثقتنا بالمناطق المضيئة فى التراث العربى ؟**

إن مشكلة البلاغة حديثا أن محاولات التجديد — فى معظمها — محاولات ربط وتوفيق خالصة وليست فى جوهرها تجديد ، وإن المحاولة التى ندعو إليها ينبغى أن تتخطى الانطلاق من الرغبة فى إحياء البلاغة القديمة أو إنصاف البلاغيين القدماء ، كما ينبغى أن تتخطى أيضا محاولات الربط والتوفيق بين مقولات بلاغية قديمة ومقولات النقد الحديث ونظرياته ؛ لأن محاولات الربط والتوفيق المعاصرة ذاتها ليست بمنأى عن النقد الموجه إلى البلاغة القديمة ، لأنها لم تكن بمنأى عن القصور المتجذر فى الأصول النظرية المشكلة لمسار الدرس البلاغى .

أضف إلى ذلك أن محاولات التطوير — فى معظمها — محاولات نظرية ؛ لأنها لم تقدم تصورا متكاملا لنقد النظرية البلاغية القديمة ، كما أنها لم تقدم تصورا عمليا متكاملا يصلح لمواجهة النص بمعزل عن مقولات البلاغة القديمة ، ومن ثم وقعت فى أحد الأخطاء التى وقعت فيها البلاغة القديمة ، ويتمثل فى الانفصام بين القاعدة والظاهرة ، وبذلك ينبغى أن تنطلق

---

[١٢] المرجع السابق ص ٢١٣

هذه المحاولات من مساءلة التصورات النظرية الفلسفية التى تتبنـــى عليـــها الرؤية البلاغية القديمة .

ترى أن سبب القصور فى ذلك يرجع إلى الإشفاق من عدم القـــدرة على الفكاك الكلى من أسر المقولات البلاغية التقليدية ؟

وينبه د. صلاح فضل إلى أحد أسباب اللبس فى الجدل حول التقليـــد والتجديد فى دراسة البلاغة بقوله : " إن التماس المفاهيم العلمية الجديدة فـــى التجليات القديمة خطأ فادح منهجيا ؛ لأنها مرتبطة بالبنية المعرفية ذاتـــها ... فليست القضية الحيوية هى إنصاف البلاغيين القدماء ، فأقوالهم تكاد ترقى فى نظر عامة الدارسين لدينا إلى مرتبة القداسة ، ولكن المشكلة الجوهرية هـــى إنصاف أنفسنا فى هذا العصر " (١٣) ، ويقرر د. سعد مصلوح عاملا آخـــر للبس فى هذه القضية لا يقل خطرا عن الأول بقوله : " وعلينا حين نرهـــف آذاننا لتسمع أصوات العصر أن نجعل عيوننا وعقولنا على مشـــكلاتنا ، إذ لا قيمة عندنا لفكرة تستفاد من ثقافة أخرى ، إلا بقدر ما تلبى حاجة ، أو تحـــل مشكلا ، أو تضىء سبيلا " (١٤) .

وحرى بالذكر أن هناك عدة محاولات أخرى لتجديد الدرس البلاغـــى بعد الخولى بيد أنها ــ فى معظمها ــ تتسم بالجزئية التى تقـــع علـــى أحـــد جوانب القصور فى البلاغة القديمة طارحة الرؤى البديلة ، ومنـــها محاولـــة أحمد الشايب التى انبنت على مساءلة التراث البلاغى ، ولكنها مع ذلك تتســـم

---

(١٣) د.صلاح فضل : بلاغة الخطاب وعلم النص ، ص ١٢١

(١٤) د. سعد مصلوح ، جـ ٢ ، ص ٨٢١

بنظر لا ينكر إلى الأسلوب بوضعه فى سياق الدرس البلاغى ولذلـك رأى أن علوم البلاغة ينبغى أن تؤخذ على أنها فصول فى الدرس الأســلوبى (١٥) ، ومعالجة د. عبد الواحد علام لفكرة المطابقة التى ميز فيها بين الشعر وغـيره من أنواع الخطاب ؛ محللا بعض النماذج من الشعر القديم التــى لــم تــراع مقتضى حال المخاطب ولكن ذلك لم يؤثر فى فنيتها (١٦) .

ولست أنكر وجود كثير من الرؤى التجديدية فى الدراسات البلاغيــة العربية بيد أنها ــ كما ذكرنا ــ اتسمت بالجزئية (١٧) ، ثم كان من التطـور المعرفى وظهــور المناهج النقدية الحديثة دافع لبعض البلاغيين العرب إلــى معاودة مساءلة التراث البلاغى على ضوء من هذه المناهج ، ونتج عن ذلــك محاولات أخرى لربط البلاغة العربيــة بــها اســتثمارا لرؤاهــا الصالحــة للاستثمــار ، وإثراء لبعض معالجاتها إذا كانت إحدى مهمات الناقد تتحدد فى إعادة النظر فى التصورات النظرية ، فبقدر ما ينطبــق هــذا القــول علــى التصورات النظرية المؤسسة للمناهج والاتجاهات النقدية الحديثة ، فإنه ينطبق

---

(١٥) د.أحمد الشايب : الأسلوب ، دراسة بلاغية تحليلية فى أصول الأساليب الأدبية

(١٦) د.عبد الواحد علام : كتابه قضايا ومواقف فى التراث البلاغى ، ص ٢٠ وما بعدها

(١٧) منها على سبيل المثال : د. مصطفى الصاوى الجوينى : البلاغة العربية تأصيل وتجديد ، ص ١٥٢ ، ١٦٦ ، ٢٢٠

د. منير سلطان : البديع تأصيل وتجديد ، وعرض فيه البديع بصورتين : إحداهما تفى بالمعنى ثم الإيقاع ، والأخرى تفى بالمعنى والإيقاع .

كذلك على التصورات النظرية الموروثة فى التراث النقدى والبلاغـــى عنـــد العرب .

إن الملاحظات التى قدمنا على محاولات التطوير أو التوفيق والربط تقتضى أن يكون المنطلق إلى محاولات قراءة التراث أو تطويره شيئا آخر غير هذه المحاولات ، ولكن ذلك ــ فى الوقت نفسه ــ لا يعنى التنكر لها أو القول بعدم جدواها ، فمن الحق أن نعترف لها بأنها هى التى فتحت السبيل إلى مساءلة التراث البلاغى على هدى من المقولات والنظريات النقدية الحديثة ، **ولكن يبقى السؤال حول إمكان ذلك وكيفيته قائما ؟**

نقض البلاغة

البلاغة أداة نقدية أم النقد إجراء بلاغى ؟

(١)

تحديات مبدئية :

إن " **النقض** " لا يعنى – مطلقا – الهدم ، ففعله " نقض " وجاء فى لسان العرب أن : ناقضنى وناقضته هى مفاعلة من النقض ، أى ينقض قولى وأنقض قوله ، ثم أشار صاحب اللسان إلى أن المراد به : المراجعة والمرادة ، وجاء أيضا أن : ناقضه فى الشىء مناقضة ونقاضا : خالفه ، وجاء فى اللسان أيضا أن النقض : ما نكث من الأخبية والأكسية فغزل ثانيا . (لسان العرب مادة نقض)

نبدأ بهذا التعريف البسيط لأن فكرة النقض – أو قل إجراء النقض – الذى ندعو إليه قد يجابه برفض مبنى على كون النقض ضربا من الدعوة إلى القطيعة المعرفية ، وأنه هدم مطلق ، وليس هو كذلك ، ولهذا السبب ، ولتخوفى من أن تعتم غوغائية المعارضين على فكرة النقض ، أؤكد على أن النقض الذى أعنيه إنما هو ضرب من المراجعة وإعادة النظر ، ليس فى التراث وحده ، بل فى معطيات الفكر العربى بشكل عام ، أى فى حاضره وماضيه ، أؤكد على أن فكرة النقض إنما هى ضرب من تجديد الفكر الذى يمثل نسيج العقل العربى ، ولا أرى عاقلا يخالف هذا الهدف وما يمكن أن يؤدى إلى تحقيقه من نشاط عقلى متميز وخلاق .

بيد أن فكرة النقض بهذا المعنى الذى ذكرنا لا يقوى عليها كل متصد للقول فى منحى فكرى معرفى ، فهى بحاجة إلى عقول متميزة ناضجة قادرة

على الهدم وهى على البناء أقدر ، حتى لا يستحيل الأمر إلى همجية لها من الآثار السلبية أضعاف ما لها من الإيجابيات .

بل لقد قوبلت كلمة النقض برفض آخر – عندما طرقتها فى بعض المناقشات – جاء مبنيا على استفزازية الكلمة ، وكانت النصيحة أن أبتعد عن العناوين التى تستفز مشاعر الناس ، وتتحداها ، والحق أننى فعلا أقصد إلى هذه الغاية الاستفزازية ، ولكننى لا أسعى إلى استفزاز الناس بل إلى استفزاز همم الدارسين والباحثين ؛ لأن هذا العمل يحتاج إلى هذه الهمم مجتمعة ، فجهود الأفراد لن تؤدى – مهما بلغت – إلى الغاية المأمولة ، ودليلى على ذلك – إن كان الأمر يحتاج إلى دليل – هو تلك الجهود التى بذلها أمين الخولى فى الربع الثانى من القرن العشرين ، إذ حمل كتابه : " مناهج تجديد ، و فن القول " فكرته فى التجديد التى لم تجد الصدى الواسع الذى كانت تستحقه من كثير من الباحثين ، بل ربما من أكثر تلاميذه ، أولئك الذين أطلقوا على أنفسهم : " الأمناء " نسبة إلى الرجل ، ومن ثم بقيت هذه الآراء فردية ، لم تسنح لها فرصة الاستثمار والتطوير بمساءلتها ومناقشتها والإبقاء على بعضها ورفض بعضها ، فلعل ذلك ما كان يرجوه أمين الخولى نفسه لهذه الآراء .

ولعل هذه السمة هى الغالبة على العقل العربى – كما أشرنا آنفا فى مناقشة قضية القطيعة المعرفية – وهى فى الوقت نفسه من أخطر خصائصه ، وسأقصر حديثى هنا على البحث البلاغى مهما كان إيمانى بعمومية الظاهرة فى الحقول المعرفية المختلفة ، وتتحدد هذه السمة فى فردية

الجهود المعرفية وذاتيتها ، ويتراوح السبب فى هيمنة هذه الظاهرة على العقل العربى بين النزعة الذاتية فى التفكير ، والنزوع إلى تقديس القديم بشكل عـام ومطلق .

ولافرق بين أن يكون الدافع وراء ذلك متمثلا فى النزعـة الفرديـة الذاتية التى ينزع الباحث فيها إلى إثبات وجوده ، فيمضى فى تثبيت العقل فى دائرة معرفة ما كان ؛ لأنه لا يستطيع تجاوزه ، ويضرب الذكر صفحا عـن معاصريه وسابقيه من المحدثين إن هم حاولوا غير هذا السلوك ، وكأنه قـد بات عيبا خفيا أن يبنى اللاحق على آراء السابق ، أو يقمع محاولات تلاميـذه إن سعوا إلى إضافة شىء إلى هذا العلم يسهم فى إنضاجه ، أو حاول أحدهـم مساءلة القواعد التراثية بهدف تفعيلها وبث الروح فى أوصالها المتصلبـة ، وكأنه هو وحده الحقيق بالوجود ، وكأن حق المعرفة لم يمنح لسواه ، وكـأن واجب المعرفة لم ينط بسواه ، بل كأن نسمات الحياة لم تخلق لسواه .

أو يكون هذا الدافع متعلقا بالنظرة التقديسية للتراث وكل ما هو قديم ، وهذا التقديس إما أن يكون تقديسا حقيقيا ، ولكن مهما كان هذا التقديس حقيقيا فإنه ينطوى على غاية خفية قوامها الدعة والراحة من عناء البحث ، فإقامـة علم أو إنضاجه أمر يحتاج إلى تأمل وتدبر وطول معايشة لأصول هذا العلم ، ولاأشك فى أن ذلك يحمـل الكلـف به العناء الكثير .

ومن ثم كان فى آراء السابقين الأولين الملجأ والملاذ ، على الرغـم من يقيننا بأن ما اختلفوا فيه أضعاف ما اتفقوا حوله ؛ لأنهم لم يضعوا بيـن أيدينا علما ناضجا ، إذ وصفوا هم هذا العلم بأنه : لم ينضج ولـم يحـترق ،

ولكننـــا آثرنا السلامة واستكنا إلى الدعة ، وعشنا علـــى آرائـــهم ، نلـــوك اختلافاتهم ؛ لأننا نجد فيها مادة نحبر بترديدها أوراقـــا نعنونـــها بعنـــاوين تقليدية أو جديدة ، ونـــزج بها إلى ظلام المطـــابع لتخـــرج لطـــلاب العلـــم صفحـــات بيضاء قد سودناها بكلام ، أصدق ما يوصف به أنه كـــلام علـــى كلام .

إن فكرة النقض التى نطرحها تضطلع بثلاثة مواقف :

موقف من التراث البلاغى : يبحث المؤثرات التى أثرت فـــى بنيتـــه الأولى سلبا وإيجابا ، من روافد العلـــوم العربيـــة واتجاهـــات أيديولوجيـــة للمشتغلين بالبحث البلاغى ، كما يلقى الضوء على جوانب التميز وجوانـــب القصور التى استقرت فى متونه لتتناقلها الأجيال ـــ فى أغلـــب الأحيـــان ـــ بالقبول والإذعان ، وفى أحيان قليلة بالمساءلة والرفض .

وموقف من المعرفة الغربية الحديثة : لا ينطلق من محاولات الربط والتماس أوجه التشابه بين البلاغة العربية ومعطيات العقل الغربى الحديـــث فقط ، بل يستجلى الفروق والخصائص المـــائزة المترتبـــة علـــى اختـــلاف المؤثرات والثقافات والبنيات الاجتماعية فى البلاغتين العربيـــة والغربيـــة ، لكيلا يعد كل مأخذ على البلاغة الغربية القديمة مأخذا على البلاغة العربيـــة ، ولكيلا تقابل كل محاولة للتجديد فى البلاغة الغربية بالقبول والإذعان ، فثـــم نتائج سلبية فى التناول العربى الحديث أسفر عنها هذا الخلط وأسفرت عـــن خلط يوشك أن يستقر .

وموقف من محاولات التجديد الحديثة فى الدرس البلاغى : تلك التى بدأت مع محاولات أمين الخولى ، وظلت المحاولات تتتابع ولكن فـــى غـــير ترابط ، مما أفقدها الرؤية المتكاملة ، وإن كان كثير من المحدثين قد نبـــهوا إلى ملاحظات ثرية ، بيد أن استثمارها يفتقر إلى هذه الرؤية الشاملة الكليـــة التى يعمل فيها الجميع بنهج الفريق الواحد ، الذى يؤمن بأنه بصدد البحث فى علم لم يحترق ولم ينضج ، وإذا كان لى ثـــم جهد يذكر فيما أحاوله فإنما هـــو ثمرة جهود أعلام البلاغيين العرب المحدثين ونتـــاج ملاحظاتـــهم الصائبـــة ومثارات أسئلتهم الواعية .

يأتى جلاء هذه المواقف بمثـــابة وقفة المراجعـــة لتحـــولات العقـــل العربى فى هذا الحقل المعرفى منذ نشأته الأولى ، متتبعة خطواته فى مراحل تطوره ؛ بغية استثمارها ، وفى مراحل عقمه وجموده بغيـــة التنبيـــه علـــى الأسباب التى أدت إلى هذه النتائج لتلافيها ، إنها وقفة إعادة الترتيب للعقـــل العربى تتخطى عوامل الإعاقة ، وتنطلق به إلى آفاق أرحـــب فـــى البحـــث العلمى والتطور المعرفى .

إن القراءة الناقضة الخلاقة التى نطرحها أشبه بما تعنيه كلمة النقد فى قول أحد المعاصرين : " إن أزمة التحول الحضارى المصيرى التى نعانيـــها بحاجة إلى دراسة منهجية متميزة تستهدف الكشف عن الجـــذور التاريخيـــة العميقة فى العصور القديمة والمتوسطة والحديثة التى نبـــع منـــها فكرنـــا ، والإبانة عن العوامل التى صاغت عقلنا وسلوكنا بكل ما نعانيه من نقـــائص ومزايا وإيجابيات وسلبيات ، وأحرى بنا أن نعكف على دراسة مكونات فكرنا

دراسة نقدية موضوعية حرة ومتحررة من كل قيد حتى نهتدى إلـــى ســبيلنا المتميز للخلاص ، ونعرف طريقنا للتقدم ، وإلا سنظل كما نحن نضرب فـــى عماء " (١) .

فإذا كان الباحثون والدارسون فى كل أمة أمناء على تراث أمتهم فـإن الاضطلاع بهذه الأمانة لا يعنى الثبات والجمود ، والوقوف حيال هذا التراث موقف المتلقى السلبى الثـلجى ، فلو كانت الأمانة تقتضى هذا الموقف لمـــا أضاف ثانيهم إلى أولهم ، ولما تقدم بهم الأمر خطوة واحدة ، ولجمد العقـــل ونضب الفكر ولاستحـــال الأمر بهم إلى موات ، فإن من بين أعلام تـــراث هذه الأمة عبد القاهر الجرجانى ــ مثلا ــ الذى دفع إلى مواصلـــة البحـث والدرس دفعا ، بل إن فى أقواله إقرارا لمبادئ أكثر معاصرة من كثير مـــن المعاصرين .

لعلنا ــ بهذه القراءة الناقضة ــ نكون أكثر إخلاصا لتحقيق الهويـــة الثقافية ، وأكثر حرصا على دفع تهمة التبعية الثقافية عن أنفسنـــا ؛ لأننـــا ــ بالقراءة الناقضة ــ نتجنب الوقوع فى نقيصة من ثلاث نقائص :

ــ عدم الإخلاص للهوية الثقافية .

ــ التبعية المستسلمة للنقل من التراث أو الآخر .

ــ المنحى الاستهلاكى النقلى من التراث أو من الآخر .

---

(١) شوقى جلال : مقدمة ترجمة كتاب كرين برينتون : تشكيل العقل الحديث ، القاهرة ٢٠٠١ م ، ص ١٣

إن النظرية عربية : إذا انطلقت من التراث العربى تطويرا للمفـــاهيم والمقولات والنظريات ، وإذا انطلقت من إجراء النقض والغربلة التى تحتفـظ ببعض المفاهيم والمقولات والنظريات ، وتطرح بعضها الآخر ، وحتى لـــو كان إجراء النقض نقضا تاما ، فإن البناء على أنقاض نظرية أو مفاهيم خطـأ هو ــ فى الوقت نفسه ــ بناء على التراث يعكس موقفا إيجابيا منه ؛ لأن ذلك إنما يتم بحوار العقل الآنى للأمة بعقلها فى مرحلة سابقة ، وبذلـــك يعكــس صورة من صور التفاعل مع التراث ، فالنقض التام ، أى الرفض ، هو فـــى حقيقته نوع من التواصل .

وبذلك يعد موقف النقض هو الموقف الأكثر إيجابية من التراث فـــى مواجهة موقفين سلبيين ، وإن تفاوتا فى درجة ســـلبيتيهما : موقــف التلقـــى السلبى والتقـــديس التبريرى ، وموقــف النقــد والتركــيز علـــى الســـلبيات والإيجابيات ، دون محاولة جادة تطرح كيفية تجاوز السلبيات ، وكيفية تطوير الإيجابيات والإفادة منها .

فما نسميه نقضا هو فى الحقيقة تطوير ؛ لأن الفكرة الثانيـــة القائمـــة على أنقاض الأولى ربما ما كانت لولا وجود الفكرة الأولى ، وبذلك يســـتقر لدى صاحب المنطلقات المعرفية الموضوعية الخالصة أن الفكرة التـــى يتـــم نقضها هى الفاعل الحقيقى فى انبثاق الفكرة الثانية ، ومن ثم فوجودها السابق لا يقل أهمية عن الفكرة الثانية ، لتبقى الفكرة الأولى دائما هـــى الأســـاس ، وانظر إلى الفكر الغربى لترى كم فكرة قامت على نقض بعض أفكار أرسطو وآرائه ، ومع ذلك فأرسطو هو المعلم .

(٢)

لا يقف حقل معرفى من العلوم العربية شاهدا على الانفصام الفكرى عند العرب قدر البلاغة ، فهى الحقل المعرفى الذى سيطرت على المحدثين فيه النظرة التعصبية ، له أو عليه ، فبينما ذهب كثير من الدارسين والباحثين إلى الثورة على البلاغة القديمة ، راح آخرون يتبارون فى الدفاع عن البلاغة وكأنها من المقدسات التى يجب حمايتها والذب عنها ، وكلا الفريقين يقودهما التعصب العنيف ، ولا أرى ذلك إلا مظهرا من مظاهر الانفصام فى العقل العربى .

ولست أمارى فى أن مظاهر السلبية فى الدرس البلاغى الحديث تفوق مظاهر الإيجابية ، ولست أنكر على أحد أن يتهم المنحى التعليمى فى هذا الحقل المعرفى بالانفصام لأننى أقرر ذلك سلفا ، ولا معنى لأن نغض الطرف عن عيوبنا ونقاط ضعفنا خجلا واستحياء ؛ لأن فى ذلك مؤشرا خطيرا إلى استمرار مظاهر السلبية ، بل إقرارها ، و تأصيل للخلط والاضطراب الذى لا ينفصل عن مظاهر الإعاقة فى العقل العربى .

و من ثم يصبح تجاوز أكثر ما حبر من صفحات فى هذا الحقل المعرفى ، ومساءلة النظريات والمقولات التى استقرت زمنا طويلا ، هو

السبيل الوحيد إلى البداية الصحيحة فى صياغة النظريات العربية ، ويأتى هذا من قبيل الوعى الذى ينبغى أن يكون بما بين أيدينا من معطيات المعارف والعلوم الحديثة .

إننا أمام البلاغة نجد أنفسنا مضطرين إلى الاعتراف أولا بأن ما حصلناه من علومها ينطوى على خلل لا مناص من تجاوزه ، وهنا يفرض سؤال نفسه على الدارس فى مستهل يقظته المعرفية ممن يتصدون لهذا العبء الثقيل : هل يعنى ذلك أن ما درسناه خطأ ، أم أن ما نقبل على دراسته هو الخطأ ؟ فالأمر لا محالة لا يخلو من خطأ ، ولذلك فإن النصيحة الثابتة هنا لمن كان هدفه معرفى خالص تتحدد فى " أن يفكر " ، ولا شيء آخر سوى أن يفكر وفق ما يقتضيه المنهج العلمى من حياد وموضوعية .

إن ما يدرسه طلاب المراحل التعليمية من مباحث البلاغة يصور لهم الأمر قواعد تطبق على مادة بين أيديهم ، يقف الطالب حائرا حيالها فى أغلب الأحيان ، وما كان أعنف وأقسى أن يسأل عن قيمة التشبيه أو سر جمال الاستعارة أو أثر الكناية ... مثلا ، ولكنه لا يدرى ، وما كان له أن يدرى بالأدوات العاجزة التى وضعت بين يديه سبب هذا الجمال أو مظهره ، وربما اعتراه بعض الشك فى هذا الجمال الذى لا يراه حقيقة ، أو لا يستطيع الوقوف على حقيقته إن كان حقيقة ، بيد أنه مضطر إلى أن يحفظ هذه الكلمات بنصها لأن حفظها أمر يتعلق بأهدافه الخاصة فى النجاح وتحقيق التفوق ، وما إلى ذلك ، كل ذلك يغفله الدرس البلاغى فى تلك المرحلة ولا

يضطر الطالب إلى تفحصه والتفكير فيه لأنه محمول على تحصيل ما يملى عليه ، وهو بذلك محمول على إلغاء فكره وعقله تماما .

وكان من جراء هذا الأسلوب العقيم فى المنحى التعليمى للدرس البلاغى أن التشبيه أيا كان وضعه وسياقه وبنيته لابد أن يكون له قيمة ، ولن يعدم المعلم أو الطالب اختلاق قيمة ما لهذا التشبيه ، ولابد أن تكون الاستعارة جميلة ، ولابد أن يكون لجمالها سر ، ولابد أن يكون للكناية أثر ، ثم كانت النتيجة عبارات محفوظة تلصق بكل تشبيه وكناية واستعارة ، فالتشبيه يؤكد المعنى ويوضحه والاستعارة توضح المعنى وتؤكده والكناية تبرز المعنى وتبينه ، وما إلى ذلك من العبارات الجوفاء التى يستهلك الطالب فى الوقوف عليها وتحصيلها وحفظها زمنا ، وما درى أنه بذلك يدور فى طاحونة ما طحنت قط سوى الهواء ، وأن ما حصله وأفنى فيه أيامه كان محض هراء .

ليس عبثا أن نرجع هذه الظاهرة إلى ما أسميناه انفصام العقل العربى ؛ لأن هذا الحقل المعرفى (البلاغة) تتلقفه أياد عديدة لا يحكمها منهج واحد ؛ لأنها ترجع إلى منابع شتى ، ومن ثم فإن الإجراءات لابد أن تحتفظ بهذا الشتات والانفصام الشديد ، فإذا كان ما قدمنا هو حال الطالب فى المدارس الثانوية ، فحال الطالب المتخصص فى الجامعة مختلف لأنه واقع بين أمرين :

إما أن يتتلمذ على يد من يؤمن بقدسية البلاغة التقليدية فيسقاها على الرغم منه ، وربما حقق فيها تفوقا ، وهو ما علم من جوهر البلاغة وما ينبغى أن تكون عليه شيئا ، ثم يعود هذا الدارس بعد سنوات قلائل معلما

للبلاغة ويصير يدا من الأيدى التى تتلقف الدرس البلاغة ، فيظل الأمر على حاله من العقم والجمود .

وإما أن يتتلمذ على يد من يؤمن بقدسية الفكر والعقل وأن البلاغة لا ينبغى أن تستقر فى مستنقع الجمود والعقم ، فينفصل عن دواعى الركود ويعلو بذاته ، ولكنه بعد سنوات قلائل أيضا سيعود معلما ، ليعيش انفصاما جديدا بين ما تعلمه وتحرك فى إطاره من حرية فكرية وما يملى عليه من المناهج الدراسية التى سيصبح مضطرا إلى الالتزام بها ، فهناك من يقوده فى التوجيه ، وهناك الامتحان العام الذى يجمع بين الطلاب جميعا ، وتلك عوامل تجعله مضطرا إلى نسيان آخر ، لينخرط فى دائرة العقم والجمود فهى أيسر مسلكا وأهدأ بالا .

ونعود إلى ما ابتدأنا به حديثنا هذا عن الموقفين المتباينين فى العصر الحديث من البلاغة التقليدية ، فلعل فى جلاء هذين الموقفين ما يكشف لنا عن الداء والدواء ، إن ملاحظة أولية لابد أن نلتفت إليها خلاصتها :

أنه ينبغى ألا يوضع هذا الخلاف فى عداد الخصومات ، فيتم تلقيه ثم يسجل على أنه حلقة من حلقات تاريخ البلاغة ، وأنه مجرد خصومة بين دعاة القديم ودعاة الحديث ، ففى هذا من الخطورة الشىء الكثير ، لأنه يعنى أن يقفل هذا الباب على ما هو عليه ، و بذلك يذعن العقل العربى لاستقرار الانفصام .

لقد ثار على البلاغة التقليدية نفر غير قليل ، ولكنهم جميعا أعلام

وليسوا أغمارا ، وهذا يدعونا إلى التوقف والتفكير لا إلى الإذعان والتسجيل ، إن الأمر ليس مقتصرا على مجرد تسجيل لرأيين متباينين ، ولكنه اختـــلاف يدعو إلى موقف ، والموقف الذى نقترحه :

إن البلاغة بحاجة إلى **نقض** ، وإن هذا **النقض** بحاجة منا إلى حملـــة لا يقوى عليها صوت واحد إذا استوعبنا خطورة الموقف لأثره السلبى علـــى مسارنا الفكرى ، فكيف نلوذ بالصمت حيـــال جمود فى حقل معرفـــى ينقـــاد قطاع كبير من مجتمعنـــا فيه إلى هـــاوية العقم وترديد كلام لا يعيه ومن ثـم لا يقتنع به ، إن المقترح الذى أدعـــو إليه هنا يتحدد فى كلمتين اثنتين همـــا : " **نقض البلاغة** " .

(٣)

لعل الأمر يقتضينا أولا أن نقف وقفة متأنية عند كلمة (علم) التي تتصدر كلمة البلاغة كما تتصدر فروعها الثلاثة ، فهل البلاغة علم مستقل بذاته ؟ وهل يستحق كل فرع من فروعها أن يسمى علما ؟

و يكفى أن نشير إلى أن كلمة علم ليست دقيقة في إطلاقها على الدرس البلاغى ، فهى أكبر من أن توصف بها قواعد الفروع البلاغية وقوانينها ، وما حديثنا الآن سوى تأكيد لهذا المبدأ ، فما ذلك العلم الذى ينسى بعضه بعضا ؟ وما ذلك العلم الذى لا تقف على ما تستهله منه إلا بتجاوز ما وقفت عليه بالفعل فى مرحلة من المراحل ؟ فالعلم حلقات متصلة يتعرض لظواهر مختلفة بآليات محددة ، ثم يتوسع فيها ويستغرق المتخصص في التوسع بالإضافة والحذف ، بيد أنه فى آخر الأمر ونهاية المطاف لا يستغنى بحال عن البدايات الأولى التى تمثل المعطيات والمسلمات التى يستوى في الحاجة إليها الدارسون على تفاوت مستوياتهم .

ومن ناحية أخرى تجد البلاغة تتنافى مع خصائص العلم المضبوط ـ الذى عرف عند العرب بالصناعة ـ وهذا يرجع إلى طبيعتها الخاصة بها المتعلقة ـ بلا شك ـ بطبيعة الظواهر التى تمثل مادتها المدروسة ، " ويقابل الصناعة في الفكر العربى ما يسمونه (المعرفة) ، ويفهم من المقابلة

بينها وبين الصناعة أن المعرفة علم يحصل بمجرد التحصيل دون اشـــتراط التمرن ، ويتضح الفرق بينهما إذا فرقنا بين تقطيع أبيات القصيـدة ومعرفـة معانى هذه الأبيات ، فالأول صناعة لأنه ينبنى على قواعد لا بد من التمـرن على تطبيقها ، على حين يكفى لمعرفة الأبيات أن نصل إليها فرادى ونتذكـر ما تعلمناه من ذلك دون أن يخضع الأمر للقواعد ، أى أن العروض صناعـة والمعجم معرفة " (٢) .

والاستقلال الذى نعنيه هنا هو استقلال البلاغة عن النقد الأدبى ، فإن إصابة البلاغة بآفة التقوقع والجمود هى فى جوهرهـا وليـدة اسـتقلالها ، واتخاذها سبيل العلم المتحيز بذاته ، وما التقوقـع فـى التقعيـد التلاخيـص والشروح والمطولات سوى مظهر من هذه المظاهر ، وليستقر ذلـك القـول يقينا فى نفسك أحيلك إلى القرون التى استقلت فيها البلاغة عن النقـد حتـى بلغت ما بلغت من الجمود والعقم ، إذ اتخذ كتاب [مفتاح العلوم] السـكاكى سبيله إلى الشروح والتلاخيص ، وأصبحت البلاغة وقفا على هذه الشـروح ، وعلى المبادئ التى أقرتها ، فاستقرت بها البلاغة فى هذا المنعطف الضيـق وكأنه ليس وراء ذلك مزيد .

ومن هنا يمكننا القول بأن استقلال البلاغة بذاتـها ــ وفـق النسـق التقليدى ــ هو قتل للبلاغة نفسها ، فينبغـى أن ننتبـه إلـى أن البلاغيـن المتأخرين والتقليديين من المحدثين جعلوا من البلاغة وسيلة وليست غايـة ، ومن ثم فإن كلمة علم يستقل به بعض المتخصصين فيه ــ والحالة هـذه ــ

---

(٢) د. تمام حسان : الأصول ص ١٣

أمر ليس له ما يبرره ، ولن يكون ثـم مبرر إلا بتحول نظرة البلاغة وتحول النظرة إليها فى آن واحد .

إن البلاغة لا تعدو بأى حال من الأحوال أن تكون مجموعـة مـن القواعد لا حياة فيها إلا إذا وضعت بين يدى الناقد بوصفها أداة من أدواته فى التحليل ، ثم لابد أن يقف الناقد على مجموعة القواعد هذه ويتقنـها ، فـهو وحده الذى يناط به بث الحياة والروح فى جمود قواعدها ، وهو ــ بعبـارة أبسط ــ أقدر على إدراك جوهر البلاغة من البلاغى الذى يدور فـى حلقـة مفرغة من القواعد والقوانين ، وهو الأقدر على الحفاظ عليها غضة ناميـة ، أو يتحول البلاغى إلى محلل متتبع للظواهر ، ليخرج عن التقوقع فى غايـة ضحلة تتمثل فى تحصيل المصنفات والوقوف على التفريعات .

إن هذا الأمر لا يحله أن يخرج علينا كتاب فى آخر الزمان ويكتشـف أن البلاغة العربية فيها نظرية ، وأن هذه النظرية هى نظرية النظم ، فـالأمر أخطر من هذا بكثير ؛ لأن إجراء النقض ينبغى أن يبدأ جذريا ، فـإن أحـد مظاهر الانفصام فى الدرس البلاغى يأتى من سلطة الجذور المعرفية التـى رفدت الدرس البلاغى العربى ، فالبلاغة قامت على فلسفات علـوم وحقـول معرفية أخرى ، وعلى من يتصدى لإجراء النقض أن يأخذ نفسه بفصل هـذه الأصول المعرفية ولو مؤقتا بغرض تنقية الأصول التى يمكن أن يقوم عليـها الدرس البلاغى الحديث ، فلقد قضت البلاغة فترة جنينيتها فى أرحام حقـول معرفية متعددة ، مما أدى إلى دخول عناصر غريبة فى نسيجها ، وأصبح من الصعوبة أن تنفصل عنهـا ، إذ لم تستطع البلاغة على مر العصـور منـها

فكاكا ، حتى مثلت هذه الجذور سلطات على الدرس البلاغى .

إن الملمة الواقعة من كون البلاغة علما قائما بذاتــه وفــق التنــاول التقليدى ناتجة من جعل إدراك الظواهــر البلاغيــة ورصدهــا وتوصيفــها وتصنيفها هدفا ليس وراءه هدف ، ولا يعنى قولنا هذا أن الجهد المتمثل فــى إدراك الظواهر ورصدها وتوصيفها أمر لا حاجة بالدرس البلاغى إليه الآن ، بل هو أمر ضرورى لاغنى عنه ولكن الذى ينبغى علينا : أن نقصره داخــل حدوده بحيث لا يتجاوزها ؛ لأنه طور من أطوار الدرس البلاغى فى مرحلــة تعليمية ، وليس هو الدرس البلاغى ، وليس هو هدفه الأكبر ، فمن تحقق لــه هذا الطور يجب أن يهيأ لأطوار أخرى أكثر فاعلية ؛ لأنه بتحقق ذلك له إنما حصل الأدوات البلاغية ولما تتحقق له الرؤية البلاغية للنصوص التى تحتــاج منه أولا معرفة أهداف البحث البلاغى ، كما تحتاج منه إلى معرفــة واعيــة بالإجراءات ، أى بكيفية توظيف الأدوات من أجل تحقيق النتائج والأهــداف ، والخروج إلى حيز التحليل الذى لا ينفصل عن النقد بوصفه تحليلا للخطــاب الأدبى .

وقد أخذ كاتب هذه الصفحات نفسه فى معالجة ظاهرة بلاغيــة فــى دراسة طمحت إلى أمرين : " فهى محاولة للكشف عن جوانب ظاهرة أغفلــها التراث البلاغى وتحليل مواقف البلاغيين من القضايا المتداخلة معها ، كمــا أنها محاولة لإعادة الوعى بأدواتنا المعرفية نقدية وبلاغية ، بوصف البلاغــة أداة نقدية بإفرازاتها التى تبلورت فى مجموعة من القواعد والقوانين حددهــا البلاغيون (أو بوصف النقد إجراء بلاغيا) ، بيد أن الناقد ــ بما توفر له من

جوانب ذاتيه ومعارف مكتسبة ــ يظل هو الأقدر على استخدام هذه القواعد والقوانين ، كما أنه هو الأقدر على الأخذ والطرح بما يتلاءم مع الرؤية النقدية الهادفة إلى استكناه النصوص بتأثيراتها وجمالياتها ، ذلك الجانب الذى أغفله التنظير البلاغى فى كثير من الأحيان " (٣) .

ولكن ثم حساسية خاصة أدت إلى الفصل والتحديد الصارم بين النقد والبلاغة فى الفكر العربى ، ولعل من أسباب تولد تلك الحساسية ارتباط البلاغة العربية بالنص القرآنى بيانا لإعجازه وتحليلا لأساليبه ، الأمر الذى أدى إلى هذا الفصل الصارم بين البلاغة والنقد فى الفكر العربى ، لما يثيره المفهوم اللغوى والاصطلاحى لكلمة " النقد " من حساسية خاصة لا تتلاءم مع قدسية النص القرآنى ، ولعل من مظاهر هذا الفصل أيضا الجنوح إلى التقعيد والتقنين والتصنيف الذى أدى بالبلاغة إلى منظومة هيكلية للأنواع البلاغية ، صارت فيما بعد غاية فى ذاتها .

ولنتأمل التفريق الآتى بين النقد والبلاغة لنقف على هذه الحقيقة ، فقد ذهب بعض المعاصرين فى التفريق بين النقد والبلاغة إلى بعض الملاحظات التى تؤكد على مدى انسراب الجمود فى المعالجات البلاغية ، بل التأسيس لاستمرار الجمود وذلك بانفصالها عن النقد ، ومن هذه الملاحظات :

---

(٣) د. عيد بلبع : ظاهرة الاستقصاء فى الشعر الجاهلى ، بحث منشور فى مجلة كلية الآداب ، جامعة المنوفية ، العدد ١٧ أبريل ١٩٩٤، وينطلق البحث من إجراء النقض معالجة مصطلح " الاستقصاء " البلاغى ، مع دراسة تطبيقية على ملامح الاستقصاء فى الشعر الجاهلى .

" البلاغة أكثر جمودا من النقد لأنه متحرك مع إنتاج العصر ، بينمـــا البلاغة قواعد تثبت حينا ، وقل أيضا لها جديد لارتباطـــها الثـــابت بـــالنص القرآنى .

البلاغة جزئية لارتباطها بالكلمة أو الجملة أو الفقرة ، بينما النقد كلى يتصل بالنص ككل ، النقد طرق وأساليب بينما البلاغة اصطلاح ، النقد ذاتـــى بينما البلاغة موضوعية ، النقد فى أغلبه يلونه الفن ، بينما البلاغـــة يغلـــب عليها المنطق .

كانت غايتا البلاغة والنقد أولا متحدتين وهى : تميـــيز الجيـــد مـــن الردىء ، ثم صارت غاية النقد هى إدراك الجيد من الردىء ، بينما البلاغـــة هى اكتساب المهارة العملية فى الإنتاج ... والأولى أن تصبح غاية البلاغـــة ذوقية لوثوق اتصالها بالنص القرآنى ، بينما النقد غايته العملية هى إكســـاب المهارة للإنتاج الأدبى .

البلاغة هى المبحث الأسلوبى فى النقد ، النقد تاريخيا عملـــى لأنـــه تطبيق ، بينما البلاغة نظرية لأنها تشريع وتقنين ، القـــرآن قـــامت حولـــه دراسات بلاغية وكذلك النثر ، بينما الشعر قامت حوله دراسات نقدية " [٤] .

فالبلاغة كما هو واضح من هذا التفريق : " أكثر جمـــودا ــ قواعـــد تثبت حينا وقل لها جديد ــ جزئية لارتباطها بالكلمة أو الجملة أو الفقـــرة ــ يغلب عليها المنطق ــ اكتساب المهارة العملية فى الإنتاج ــ نظرية لأنـــها

---

[٤] د. مصطفى الصاوى الجوينى : البلاغة العربية تأصيل وتجديد ص ٢٠٢

تشريع وتقنين " وأى قيمة تذكر لمعرفة تحتفظ بهذه الصفات ؟

والغريب فى هذا التفريق أن يجعل ارتباط البلاغة بـــالنص القرآنـــى سببا فى ثبات قواعدها ، أى جمودها ، على الرغم مـــن أن البلاغـــة بـــدأت وصفية تحليلية ــ وليست قواعد ثابتة ــ لارتباطها بالنص القرآنى ، وأكـــبر مثل على هذا كتاب " دلائل الإعجاز " ، ويؤكد ذلك قول المؤلف نفســـه : إن البلاغة هى المبحث الأسلوبى فى النقد .

أضف إلى ذلك أن إصرار المؤلف على موضوعية البلاغة ــ علـــى الرغم مما قاله عبد القاهر فى الدلائل عن أهمية الجانب الذوقى فى الرؤيـــة البلاغية ــ وغايتها التى حصرها فى إكساب المهارة العملية فى الإنتـــاج ــ مستندا إلى كتـــابى الصناعتين وعيـــار الشعر ــ والصبغة المنطقيـــة فـــى البلاغة ، كل ذلك يؤكد أنه إنما قصد الحديث عن بلاغة المتـــأخرين الذيـــن تقوقعوا حول شرح المفتاح وتلخيصه ، ومن تبعهم وحصر نفسه فى دائرتـــهم من المحدثين .

إذا كانت هذه خصائص البلاغة فالأجدر بنا أن نطوح بها فى الجحيـم ــ على حد تعبير ريتشاردز ــ ولكن الواقع هو أن هذه الخصائص إنما كانت من جراء انفصال البلاغة عن النقد ، أو ما أسماه أمين الخولـــى " المدرســـة الفنية فى البلاغة " ، وهذا يعنى أن اتصال البلاغة بـــالنقد لـــه مـــن الآثـــار الإيجابية ما يعمق الدرس البلاغى ، ولا يكون هذا بجعل النقد ســـلطة علـــى الدرس البلاغى ، ومن ثم نقف فى تأمل لهذا التساؤل : **البلاغة أداة نقديـــة أم النقد إجراء بلاغى ؟**

فصل الدرس البلاغى القديم بين بلاغة الكلام وبلاغـــة المتكلــم ، إذ المتكلم يوصف بأنه بليغ كما يوصف الكلام أيضا بأنه بليغ ، بيد أنها لم تفصل بلاغة الكلام وبلاغة المتكلم عن بلاغة البلاغى ، الأمر الذى جعـــل مهمـــة الدرس البلاغى غير واضحة أو محددة فدخلت فى تضارب ، على الرغم من أن تحديد مهمة البحث البلاغى أجدى من التحديد الذى أخذت البلاغة به نفسها عن بلاغة المتكلم ، فتحديد مهمة البلاغى هى نفسها تحديد أهداف هذا الحقــل المعرفى ، ومن ثم نقترح هنا القول بمستويات الوجود البلاغى الذى يتشـــكل فى ثلاثة مستويات ، نستبعد منها المتكلم الموصوف بالبلاغة أى ما عرف فى الدرس البلاغى التقليدى ببلاغة المتكلم :

الظاهرة البلاغية : كينونتها علـــى مســـتوى الوجـــود الفعلـــى فـــى الاستعمال الفنى فى الكلام ، وهذا المستوى هو أول مستويات الوجود ، وهـذا المستوى ـــ فى الوقت نفسه ـــ هو الوجود اللافت بحيويته وفاعليته ، إذ يتمتع بحرارة الوجود ونبض التفاعل ، فهو الوجود الذى يخلق التواصل بين المبدع والمتلقى ، وهو ـــ فوق هذا وذاك ـــ الوجود الذى لا تسبقه معرفـــة نظريـــة وإنما يكشف عن وجوده أثره وتميزه ، فهو لافت بذاته لا بتمهيد نظرى سابق لوجوده .

النظرية البلاغية : الوجود النظرى فى المصنفات البلاغيـــة ، وهـــو الوجود الراصد الذى ينتفى عنه النبض ويفتقر إلى الحيوية ، ودور البلاغيـــن فيه ـــ ضؤل أو عظم ـــ لا يعدو دور الراصد الذى استلم المادة فى وجودهـــا ومستواها السابق فى النصوص الفنية وانشغل بإطلاق الأسماء على المسميات

الموجودة ، كما انشغل بالتبويب والتصنيف والتفريع والشرح ، وهذه المهمة أفرزت خلافات ، فكل ذهب يدافع عن مصطلحه وإثبات وجهة نظره وذهب المتأخر يبحث عن دور فى كثرة التفريعات ووفرة التصانيف ، ليضيف إلى ما قاله الأول شيئا أو يقدم شرحا .

وإذا كنا نضع هذا الوجود فى المستوى الثانى فهذا أمر خاضع لمرحلية الوجود أما من حيث الجدوى فهذا المستوى هو أقل المستويات جدوى وفاعلية ، لأن هذا الدور لا يعدو كونه دور الوسيط ، ولكنه ليس وسيطا بين طرفين ، فهو وسيط محتال يأخذ المادة من المبدع ويعيدها إليه ، وأدخل فى نفسه وهما بأنه إنما يرسم للمبدع الطريق ، طريق العلم بالشعر أو الفن ، وكأنه بذلك العمل إنما يعطى المبدع ما يفتقده أو يلتمسه عنده ، مع إنه فى الواقع لم يأخذ على هذه المادة المرصودة المصنفة من غير المبدع ، إن هذا المستوى ــ نظرا لذلك ــ هو أقل المستويات قيمة فى وجود البلاغة على مستوياتها المختلفة .

الإجراء البلاغى : الوجود على المستوى النقدى ، ولا ينتفى عن هذا المستوى دور الوسيط ولكنه وسيط له فاعليه لما يحققه من تواصل بين العمل الإبداعى والمتلقى ، فهو وجود الاستكشاف الذى يقف على البلاغة بنبضها وحيويتها فى وجودها فى مستواها الأول لينقل المتلقى إلى هذا النبض وتلك الحيوية ، أو ينقلهما إليه محتفظين بطاقتهما الانفعالية ، إذا كانت وظيفة البلاغة ــ وفق المنطق الغربى ــ تتحدد فى مهمتين أساسيتين هما وضع الأصول النظرية للمبدع (المفهوم القديم) وتحليل النصوص (

المفهوم الجديد) ، فإن وظيفة أخرى تضاف إلى هاتين الوظيفتين فى البلاغة العربية ، بل لعلها إحدى العلل القوية التى تسببت فى وجود التنظير البلاغى ، تتعلق هذه الوظيفة بفكرة إعجاز القرآن .

تعد البلاغة ــ بوصفها أداة نقدية ــ الضابط الموضوعى للناقد ، فهى تحمل فى طيها مبررات الاستحسان والاستهجان اللذين قـــام عليـــهما النقـــد العربى القديم ، كما تحمل أيضا الضوابط الموضوعية لعملية التحليل النقـــدى مهما كان جزئيا .

ويعيدنا هذا العرض إلى محاولة التحديد التى بدأنا بها الحديـــث هنـــا طارحين هذا التساؤل : **البلاغة أداة نقدية أم النقد إجراء بلاغى ؟**

إن مادة البلاغة ليست الكلمة أو الجملة أو الجمل فقط ، إنها بلاغـــة نص بكل ملابساته النصية وسياقاته ، فإذا كانت البلاغة تضمن القول لأكـــثر من دلالة ، فإن هذه الدلالة قد تولد فى غير اللغة ، فتكون للإشارة بلاغتـــها وللابتسامة بلاغتها ، وللنظرة ، وللإشاحة ، وللالتفاتة ، وللسكوت ، ولكـــل شىء بلاغته ، وقد يتسع مفهوم البلاغة وفق الغرض من البحث البلاغى ليمد بظلاله على النقد فيصير النقد إجراء بلاغيا لمن هدف إلى رصـــد الظواهـــر البلاغية ــ سواء أكانت نصوصا أدبية شعرا أو نثرا أو كانت غير ذلك ممـــا أشرنا إليه ــ وتحليلها واستنباط خصائصها المائزة وغير ذلك ممـــا ينـــدرج تحته الجهد النقدى ، على حين يقتصر النقد على معالجة النصوص الأدبيـــة فقط ، وعندها لا يعدو النقد كونه أحد الإجراءات البلاغية ، وربما وجدنا فـــى بعض النظريات النقدية الحديثة ما يؤكد ذلك .

أما بعد

فهل هذا هو نقض البلاغة ؟

لا أقول إن هذا هو النقض ، ولكن ـ فقط ـ أقول : من هنـــا يبـــدأ النقض ، من تحديد هوية هذا الفرع المعرفى بين الصناعات والمعارف ؛ لأن عدم التحديد جعل النظرة للبلاغة تتصرف إلى أنها أحد الصناعات ـ العلــوم المضبوطة ـ ، وهذا المنحى سار بالبلاغة فى محاولات التقعيد والتقنين التى تصلح للصناعات ، ومن هنا كانت أوجه القصور التى أسلفنا الإشارة إليها فى حديثنا عن التركيز على السلبيات ، والنقد الذى وجهه المحدثون إلى الرؤيـــة البلاغية القديمة .

فبنظرة متأنية نجد التعالى المعيارى وظواهره فى البلاغـــة العربيـــة يتعلق بالزج بالبلاغة فى درب العلوم المضبوطة ، كما نجد الانفصــــام بيـــن الظاهرة والقاعدة مرجعه إلى المحاولات المتأخرة للبلاغيين لصياغة القـــاعدة والقـــانون الذى يطمح أن يحكم الظاهرة ، ولكن الظاهرة كـــانت بـــلا شـــك عصية متمردة ، ومن ثم كان تجاوزها لقواعد البلاغيين وقوانينهم ، كما نجـد أيضا مرد الرؤية الاجتزائية إلى محاولة اجتزاء الشاهد والمثال الذى يعـــزز القاعدة ، وكأن القاعدة هى الأساس والمنطلق ، على حين أن عكس ذلك هـــو الصحيح ، أضف إلى ذلك ما أصاب الدرس البلاغـــى مـــن عقـــم وجمـــود بخروجه من حيز التحليل فى مواجهة فعلية مع النصوص إلـــى الانحصـــار

الجامد فى القاعدة والقانون ، بل إن التقسيم الثلاثى الذى استهلك الحديث فيه جهود بعض البلاغيين المحدثين لا يخرج عن تلك المحاولة المندفعة إلى جعل البلاغة صناعة وعلما مضبوطا .

وهذه الخطوة فى النقض يتبعها – بطبيعة الحال – خطوات أخرى ، لعل أولها – فيما أرى – ما يتعلق بفصل هذا الحقل المعرفى عن فلسفات العلوم الأخرى التى قام عليها ، والتى كانت بالنسبة له بمثابة الجذور ، إذ مارست هذه الجذور – بحق – سلطة على الدرس البلاغى ، فقد اتصل الدرس البلاغى بسبب من علم النحو ، واللغة ، والفلسفة ، والمنطق ، وغير ذلك من الحقول المعرفية التى انساق فى ركابها البلاغيون دون تفريق بين طبيعة الظاهرة التى تقوم البلاغة على دراستها ، والظواهر التى تقوم هذه العلوم على دراستها ، ودون تفريق أيضا بين الفلسفات التى قامت عليها هذه العلوم والفلسفة التى كان ينبغى أن يقوم عليها هذا الفرع المعرفى .

إنها – بلا شك – **سلطة الجذور وأثرها السلبى على الدرس البلاغى ،** وأرجو أن يكون هذا موضوع حديث آخر .

المراجع

ـ **أحمد الشايب** : الأسلوب ، الدراسة البلاغية التحليلية لأصـــول الأســـاليب البلاغية ، القاهرة ١٩٧٦

ـ د. **أحمد صبرة** : التفكير الاستعارى فى الدراسات الغربية ، الصديقان للنشر ، الاسكندرية ١٩٩٨م

ـ **أحمد مصطفى المراغى** : تاريخ البلاغة العربية والتعريف برجالـــها . ط. مصطفى الحلبى . القاهرة ١٩٥٠

ـ **أمين الخولى** : فن القول ، القاهرة ١٩٤٧

: مناهج تجديد ، القاهرة ١٩٦١

ـ د. **تمام حسان** : الأصول ، الدار البيضاء ١٩٩١ م

ـ د. **جابر عصفور** : مقدمات منهجية ، ضمن كتاب : قراءة جديدة لتراثنـــا النقدى ، الجزء الأول ، ط النادى الأدبى الثقافى بجدة ، عدد ٥٩ ، وأعيد طبع البحث ضمن كتاب : قراءة التراث النقدى ، دار ســـعاد الصبـــاح ١٩٩٢ م

: الصورة الفنية فى التراث النقدى والبلاغى ، ط ٣ ، بيروت ١٩٩٢ ،

: نظريات معاصرة ، القاهرة ١٩٩٨

ـ د. **جميل عبد المجيد** : البديع بين البلاغة العربية واللســـانيات النصيـــة ، القاهرة ١٩٩٨

ـ د. **حامد أبو أحمد** : نقد الحداثة الرياض ١٩٩٤ م

ـ د. **رجاء عيد** : فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور . ط ٣ طبعة منشأة المعارف ـ اسكندرية

ـ د. **سامى سويدان** : فى النص الشعرى ، بيروت (بدون تاريخ)

ـ د. **سعد مصلوح** : الأسلوب دراسة لغوية إحصائية ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٩٢

: مشكلة العلاقة بين البلاغة العربية واللسانيات النصية ، ضمن كتاب قراءة جديدة لتراثنا النقدى ، المجلد الآخر ، ط النادى الأدبى الثقافى بجدة ، عدد ٥٩

ـ شكرى **عزيز الماضى** : من إشكاليات النقد العربى الجديد ، بيروت ١٩٩٧م

ـ د. **شوقى ضيف** : البلاغة تطور وتاريخ ، دار المعارف ، الطبعة الثامنة ، القاهرة ١٩٩٠

ـ د. **صلاح فضل** : بلاغة الخطاب وعلم النص ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد ١٦٤ ، أغسطس ١٩٩٢

: النظرية البنائية فى النقد الأدبى ، القاهرة ١٩٩٢

ـ د.**عبد السلام المسدى** : الأسلوبية والأسلوب ، الطبعة الرابعة ، ١٩٩٣ ، دار سعاد الصباح

ـ د. **عبد العزيز حمودة** : المرايا المقعرة ، علم المعرفة ، الكويت ٢٠٠١م

ـ **عبد القاهر الجرجانى** : دلائل الإعجاز ، تـ محمود محمد شاكر ، ط ٢ ، الخانجى ، القاهرة ١٩٨٩ م

ــ د.**عبد الواحد علام** : قضايا ومواقف فى التراث البلاغى : القاهرة ، ١٩٧٩م

ــ د. **عيد بلبع** : ــ ظاهرة الاستقصاء فى الشعر الجاهلى ، بحث منشور فى مجلة كلية الآداب ، جامعة المنوفية ، العدد ١٧ أبريل ١٩٩٤م

ــ قضية الطبع والتكلف لى التراث النقدى والبلاغى ، قراءة جديدة ، دار الوفاء ، القاهرة ١٩٩٥م

ــ نقض البلاغة : أسلوبية السؤال ، رؤية فى التنظير البلاغى ، دار الوفاء ، القاهرة ١٩٩٩ م

ــ شوقى ضيف والدرس البلاغى ، ، ألقى فى الندوة التى أقامها المجلس الأعلى للثقافة لتكريم د. شوقى ضيف ١٩٩٩ م

ــ د. **محمد أبو موسى** : دلالات التراكيب ، الطبعة الثانية . القاهرة ١٩٧٨م

ــ د. **محمد خطابى** : لسانيات النص ، طبعة ١٩٨٨ ، القاهرة

ــ د. **محمد عبد المطلب** : البلاغة والأسلوبية ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٩٤ م

: قضايا الحداثة عند عبد لقاهر الجرجانى : الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٩٥

: بناء الأسلوب فى شعر الحداثة ، التكوين البديعى ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٩٣

: هكذا تكلم النص ، استنطاق الخطاب الشعرى
لرفعت سلام ، القاهرة ١٩٩٧
— د. **محمد عبد المنعم خفاجى** : مقدمة تحقيق كتاب الإيضاح للقزوينى ، الطبعة الثالثة ، بيروت ١٩٩٣
— د. **محمد العمرى** : نظرية الأدب فى القرن العشرين ، الدار البيضاء ١٩٩٦ م
البلاغة العربية أصولها وامتداداتها ص ٨ أفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ١٩٩٩ م
— د. **مصطفى الصاوى الجوينى** : البلاغة العربية تأصيل وتجديد ، منشأة المعارف ، اسكندرية ، ١٩٨٥
— د. **مصطفى ناصف** : اللغة والبلاغة والميلاد الجديد ، دار سعاد الصباح ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٢
: الصورة الأدبية ، القاهرة ١٩٥٨
— د. **منير سلطان** : البديع تأصيل وتجديد ، منشأة المعارف ، اسكندرية ، ١٩٨٦

المراجع المترجمة

— **إيفور آرمسترونج ريتشاردز** : فلسفة البلاغة ، ترجمة ناصر حلاوى وسعيد الغانمى ، مجلة العرب والفكر العالمى عدد ١٣، ١٤ ، ١٩٩١م

ـــ **بيير جيرو** : الأسلوب والأسلوبية : ترجمة د. منذر عياش ، بيروت
بدون تاريخ .

ـــ **جان فرانسوا ليوتار** : الوضع ما بعد الحداثى ، ترجمة أحمد حسان ،
القاهرة ١٩٩٤ ، دار شرقيات

ـــ **فرانسواز أرمينكو** : " المقاربة التداولية " ت : د.سعيد علوش ،
الكتاب ١٩٨٥ ، الترجمة ١٩٨٦

ـــ **هنريش بليت** : البلاغة والأسلوبية ، ترجمة د.محمد العمرى ، الطبعة
الأولى ، الدار البيضاء ١٩٨٩

المراجع الأجنبية :

(1) **Bradford. R :** Stylistics , London, 1997.

(2) **Eco, U :** A Theory of Semiotics, Indiana University Press. 1976

(3) **Eliot T.S :** Rhetoric & Poetic Drama, In : Selected Essys , London , 1976



المحتويات

صدر للمؤلف

(١) **الإبداع والحرية** ــ مدخل لدراسة محاور الحرية فى الشعر الحديث ــ دراسة فنية . بحث منشور فى مجلة بحوث كلية التربية بدمياط جامعة المنصورة عدد خاص عن : مؤتمر أعلام دمياط ١٩٩٤م .

٢) ظاهرة الاستقصاء فى الشعر الجاهلى

بحث منشور فى مجلة بحوث كلية الآداب . جامعة المنوفية عدد أبريل ١٩٩٤م .

٣) قضية الطبع والتكلف ــ فى التراث النقدى والبلاغى ــ قراءة جديدة .

كتاب ، القاهرة ، سنة ١٩٩٥ م .

وصدرت الطبعة الثانية عن دار الوفاء ، ١٩٩٩ م .

(٤) **قضايا معاصرة فى الأدب والنقد . الأدب الإسلامى**

" آفاق الشعر الإسلامى وحدوده "

كتاب ــ صدرت الطبعة الأولى سنة ١٩٩٦ م .

(٥) **ثلاث قضايا فى الشعر العباسى**

كتاب ــ صدرت الطبعة الأولى سنة ١٩٩٧ م .

(٦) **استنطاق النص ــ تجليات الانهيار فى شعر المتنبى .**

كتاب ــ الناشر دار الوفاء ــ سنة ١٩٩٧م.

(٧) **نقض البلاغة ، أسلوبية السؤال . رؤية فى التنظير البلاغى** : كتاب
ــ الناشر دار الوفاء ــ ١٩٩٩ م .

(٨) **شوقى ضيف والدرس البلاغى**

بحث ألقى فى مؤتمر تكريم د. شوقى ضيف بالمجلس الأعلى للثقافة
فى أبريل سنة ٢٠٠٠ م

(٩) **ابن الساعاتى بين شعراء عصره**

كتاب ــ صدرت الطبعة الأولى سنة ٢٠٠١ م

(١٠) **النقد الأدبى أعلامه وقضاياه " حتى نهاية القرن الثالث الهجرى "**

كتاب ــ صدرت طبعته الأولى سنة ٢٠٠١ م

استدراك واعتذار

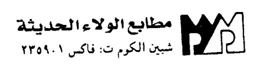
جاء فى العنوان الجانبى على الغلاف عبارة :

«رؤية فى تيه العقل العربى»

وهو خطأ مطبعى والصواب

«رؤية فى بنية العقل العربى»

المؤلف


مطابع الولاء الحديثة
شبين الكوم ت: فاكس ٢٣٥٩٠١